ٹائیٹل بار اوّل

حصہ دوم رسالہ فتح اسلام از تالیفات مجدد دوران مسیح الزمان مرزا غلام احمد صاحب رئیس قادیان جس کا نام ہے

الہامی

توضیح مرام

در مطبع ریاض ہند امرتسر باہتمام شیخ نور احمد مالک مطبع کے طبع ہوا

قیمت فی جلد ۸/

صورة غلاف الطبعة الأولى لهذا الكتاب

ترجمة صفحة الغلاف للطبعة الأولى

الجزء الثاني من كتيب "فتح الإسلام"، من سلسلة تأليفات مجدد العصر ومسيح الزمان ميرزا غلام أحمد زعيم قاديان، وعنوانه:

توضيح المرام

(تعريب بيتين إلهاميين بالأردو)

لماذا ترتابون في الإيمان بهذا المسيح وقد بيّن الله ذاتُه مُماثلتَه للمسيح الأول
فأنتم أيضًا تخاطبون الطبيب الماهر بهذا، حتى إنكم تسمّون الجميلَ مسيحًا

****

طُبع تحت إشراف شيخ نور أحمد صاحب مطبعة "رياض الهند"

الإعـــــلان

بعد هذا الكتيب، وخلال بضعة أيام؛ سيكون جاهزًا بمشيئة الله
كتيب آخر للطبع وعنوانه: "إزالة الأوهام"
وهو الجزء الثالث لكتيب "فتح الإسلام".

الـــمـــعـــلـــن

ميرزا غلام أحمد عفا الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله والسلام على عباده الذين اصطفى

بعثة المسيح الثانية إلى الدنيا

يعتقد المسلمون والمسيحيون بشيء من الاختلاف أن المسيح ابن مريم عليه السلام قد رُفع إلى السماء بجسده المادي، وسينـــزل من السماء في وقت من الأوقات. ولقد سبق أن بيّنتُ خطأ هذا الاعتقاد في هذا الكتيب، وبيّنت أيضا أن المراد من النـــزول ليس نزول المسيح ابن مريم في الحقيقة، بل قد أُنبئ على سبيل المجاز والاستعارة بمجيء مثيل المسيح وأنا مصداقه وفق إعلام من الله وإلهامه.

وإنني أعلم يقينا أن أقلاما كثيرة ستتحرك في المعارضة بعد نشر عقيدتي هذه التي ثُبِّتتْ عليها ببيِّنات الإلهام، وستقوم في العوام ضجة كبيرة ملؤها الاستغراب والإنكار. كنت أنوي بالفعل أن أتجنّب الإسهاب في هذا الموضوع، وأن أُقدِّم لدحض الاعتراضات حين ظهورها أدلةً مفصلة بحسب أفكار المعترضين. ولكني أرى في هذه الفكرة عيبا؛ وهو أن التقصير في الكتابة من جانبي قد يقود عامة الناس أيضا - دع عنك خواص المسلمين أيْ بعض مشايخهم - إلى النهوض لرفض كلامي دون مبرر، وذلك لقصور فهمهم الذي صار جزءًا لا يتجزأ منهم نتيجة حالتهم المتردية، وأيضا بسبب تأثُّرهم بفكرة بالية، ولتحيُّزهم إلى إثبات صدق دعواهم. وإن ادّعاءهم مقابلي سيشكِّل عليهم حجابا غليظا يتعذر بل يستحيل عليهم الخروج منه والتراجُع عن رأيهم بعد

ترويجه، لأن ما يلاحَظ دائما هو أنه عندما يعلن شيخٌ ما رأيه على الملأ ويعدُّه قرارا نهائيا؛ فإنه يرى التراجع عنه أسوأ من الموت. لذا أردت لوجه الله، ورحمةً بهم – قبل أن يتورطوا في بلاء التعنُّت والتعصُّب بمواجهتهم لي – أن أُفهِّمهم بوضوح وبأدلة قاطعة؛ بما يطمَئن به العاقل والعادل والباحث عن الحق. وإذا مسّت الحاجة لتحرير شيء فيما بعد، فقد يكون للسذج والبليدين للغاية فقط الذين ليس لديهم أدنى إلمام بالاستعارات والمصطلحات والتأويلات الدقيقة المستخدمة في الكتب السماوية، بل لم يمسّوها، وهم تحت النفي الوارد في قوله تعالى: ﴿لا يَمَسُّهُ﴾.

أولا أريد القول بغية التوضيح: إن هناك نبيَّين اثنينِ يُظَنُّ أنهما صعدا إلى السماء بالجسد المادي بناء على ما ورد في **الكتاب المقدس** والأحاديث الشريفة وكتب الآثار. أحدهما هو يوحنا الذي يسمَّى إيليا وإلياس أيضا، والثاني هو المسيح ابن مريم الذي يُسمَّى أيضا عيسى ويسوع. تقول بعض الأسفار في العهدَين القديم والجديد عن هذين النبيَّينِ إنهما رُفعا إلى السماء وسينـــزلان إلى الأرض في عصر من العصور، وسترونهما نازلَين من السماء. وإن كلمات مشابهة نوعا ما بما ورد في هذين الكتابينِ؛ موجودةٌ في الأحاديث النبوية الشريفة أيضا. ولقد صدر القرار في الإنجيل في نزول إلياس – الذي أُطلق عليه في الكتاب المقدس اسم يوحنا وإيليا أيضا– من السماء؛ بأنه قد تحقق بولادة يحيى بن زكريا. فقد قال عنه المسيح عليه السلام بكلمات واضحة: "وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَقْبَلُوا، فَهذَا هُوَ إِيلِيَّا الْمُزْمِعُ أَنْ يَأْتِيَ". إذن، فقد صدر القرار في محكمة نبيٍّ في قضيةِ صاعدٍ إلى السماء ونازلٍ منها في وقت من الأوقات – أي قضية يوحنا – وتبيَّنت حقيقة النـــزول الثاني وكيفيته. فلا بد أن يكون للمسيحيين كلهم

اعتقاد متفَق عليه، بحسب ما ورد في الإنجيل، أن إيليا الذي كان يُنتظر نزوله من السماء؛ قد نزل منها في زمن المسيح عليه السلام إذ وُلد في بيت زكريا ولدٌ اسمه يحيى، بالطبيعة والصفات نفسها. أما اليهود فما زالوا ينتظرون نزوله ويقولون إنه سينـــزل من السماء حقيقةً. فأولا؛ سينـــزل على منارات بيت المقدس، ثم يقوم اليهودُ مجتمعين بإنزاله من هناك بواسطة السلَّم. وعندما يقدَّم أمام اليهود تفسيرٌ قاله المسيح عليه السلام عن نزول يوحنا؛ يستشيطون غضبا من فورهم ويشرعون في التفوه بكلمات نابية بحق المسيح وبحق يحيى عليهما السلام أيضا، ويَعُدّون كلامه عليه السلام إلحادا.

على أية حال، لقد ظهرت حقيقة كلمة "النـــزول" القابلة للتفسير، من خلال بيان المسيح عليه السلام، وبُتّ في قضية نزول يوحنا من السماء وتبيّنتْ حقيقة نزوله. أما المسيح فلا يزال الناس يؤكدون على نزوله المادي بكل شدة وحماس ويقولون إنه سينـــزل من السماء في صحبة الملائكة لابسا لباسا فاخرا[١١] وحُلّة مَلكية من أقمشة ثمينة جدا. ولكن لم تتفق هاتان الأمتان على مكان نزوله، هل سينـــزل في مكة المعظمة أو في كنيسة في لندن أو في كنيسة ملكية في موسكو؟

لو لم يُضلّ المسيحيين تقليدُ الأفكار القديمة لاستطاعوا أن يفهموا بسهولة أكثر من المسلمين أنه يجب أن يكون نزول المسيح حسب الشرح الذي بيّنه بجلاء تام كلام المسيح عليه السلام نفسه، لأنه لا يمكن بحال من الأحوال أن يُحمَل

[١١] هل تكون تلك الأقمشة من قبيل الحرير والاستبرق والسندس وما إلى ذلك من الأقمشة المتنوعة الفاخرة والثمينة؟ ومن نسجها ومن خاطها في السماء؟ لم يخبرنا بذلك أحد المسلمين أو المسيحيين إلى الآن، منه.

أمران صنوان على معنيين متناقضين. وحريّ بأهل الرأي السديد أن يتدبروا في أنه إذا كان التفسير الذي قام به المسيح عليه السلام لنـــزول يوحنا من السماء صحيحا فعلا، أفلا ينبغي أن يُطبَّق التفسير نفسه على قضية نزول المسيح التي تشبه تماما القضية التي سبقتها؟ فما دام المسيح عليه السلام قد أماطَ اللثام عن حقيقة سرٍّ مكنون، وقانونُ الطبيعة أيضا يقتضي الأمر نفسه ويؤكد على المبدأ نفسه؛ فهل يُعقلُ في هذه الحال أن نترك صراطا مستقيما ونحفر من عند أنفسنا طريقا معوجا ومحط اعتراض؟ هل لضمير أهل العلم والإيمان - الذي يدعمه بيان المسيح بكل قوة - أن يتجه اتجاهًا آخر؟ ولقد سبق أن نشر المسيحيون قبل عشرة أعوام في الجرائد الإنجليزية نبوءتهم أن المسيح سينـــزل من السماء في غضون ثلاثة أعوام. أما الآن وقد بعث الله ذلك النازل؛ يتحتم عليهم أن يكونوا أول المؤمنين به حتى لا يُعَدُّوا مكذِّبي نبوءتهم بأنفسهم.

المسيحيون يعتقدون أيضا أن المسيح دخل الجنة بعد الرفع. ففي إنجيل لوقا يُطمئن المسيحُ نفسه لصًّا ويقول: "إِنَّكَ الْيَوْمَ تَكُونُ مَعِي فِي الْفِرْدَوْسِ"[١٢]. ومن معتقدات المسيحيين المتفق عليها أنه لن يُخرَج أحدٌ من الجنة بعد أن يدخلها، مهما تدنّت درجته. وهذا ما يعتقد به المسلمون أيضا؛ إذ يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَمَا هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ﴾[١٣]، أيْ أن الذين يُدخَلون الجنة لن يُخرَجوا منها، علما أن القرآن الكريم لا يصرح بدخول المسيحِ الجنةَ، ولكن

[١٢] إنجيل لوقا: الإصحاح ٢٣، العدد: ٤٣

[١٣] *الحجر: ٤٩*

وفاته مذكورة في ثلاث آيات[١٤]. والحق أن وفاة العباد الأطهار ودخولهم الجنة في حكم واحد، لأنهم يدخلون الجنة فورا حسب مفهوم الآية: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾[١٥] و﴿وَادْخُلِيْ جَنَّتِيْ﴾[١٦]. والآن يجب على المسلمين والمسيحيين أن يفكروا جيدا؛ هل يمكن أن يُخرج عبد مقرَّب عند الله مثل المسيح من الجنة بعد أن يدخلها؟ ألا يستلزم ذلك إخلاف وعد الله الوارد في جميع كتبه المقدسة بالتواتر والصراحة بأن الذين يدخلون الجنة لا يُخرجون منها. ألا يُحدث نقضُ هذا الوعد الكبير والقاطع زلزالا شديدا في كافة وعود الله تعالى؟

اعلموا يقينا أنكم باعتقادكم هذا لا تجلبون مصيبة كبيرة لا مبرر لها للمسيح فقط، بل تحطّون أيضا من شأن الله، وترتكبون إساءة شديدة في حقه تعالى بسبب هذه الأفكار العبثية. عليكم أن تنظروا بعين التدبر والإمعان إلى أن الحقائق الدينية العظيمة تفلتُ من أيديكم نتيجة معتقد سخيف مع أن سبيل الاستعارة والمجاز مفتوح أمامكم للتخلص منه. والحق أن هذا الاعتقاد فاسد وتصحبه آلاف المثالب المعقَّدة، ويتيح للمعارضين فرصةً للاستهزاء والسخرية. لقد ذكرت من قبل أيضا أن كفار مكة طلبوا من سيدنا ومولانا خاتم الأنبياء ﷺ المعجزة نفسها؛ أن يصعد إلى السماء أمام أعينهم وينـــزل منها بين ظهرانيهم، ولكنهم تلقوا ردًّا: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ أي أن الله تعالى أعظم

---

[١٤] يقول ﷻ: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ (المائدة:١١٨)، و﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ (النساء:١٦٠)، و﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ (آل عمران: ٥٦) منه.

[١٥] *يس: ٢٧*

[١٦] *الفجر: ٣١*

وأسمى شأنا من أن يُري في دار الابتلاء هذه مثل هذه الخوارق البينة ويُضيع الحكمة من الإيمان بالغيب.

أقول: إن الأمر الذي لم يُعتبَر جائزا للنبي ﷺ الذي كان أفضل الأنبياء، بل عُدَّ خارج سنة الله، كيف يجوز للمسيح عليه السلام؟ فمن الإساءة الشديدة أن نستبعد كمالا بحق النبي ﷺ ثم نقبل إمكانية الكمال نفسه بحق المسيح عليه السلام. هل يسع مسلما صادقا أن يرتكب إساءة كهذه؟ كلا، ثم كلا.

والجدير بالذكر أيضا أن الفكرة المذكورة آنفا التي راجت بين المسلمين منذ فترة، لا يوجد لها أثر في كتبنا بصورة صحيحة، بل هي ناتجة عن فهم خاطئ لأحاديث النبي ﷺ، ثم أضيفت إليها هوامش كثيرة وزُيِّنت بالموضوعات التي لا أصل لها، وقد أُهملت جميع الأمور التي من شأنها أن تهدي إلى الغاية المنشودة. وفي ذلك حديث صريح وواضح قد أورده الإمام محمد بن إسماعيل البخاري في صحيحه روايةً عن أبي هريرة رضي الله عنه نصه: "كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم".

لقد بيّن النبي ﷺ في هذا الحديث الشريف بوضوح أنه يجب ألا تفهموا من كلمة ابن مريم أن عيسى بن مريم نفسه سينـــزل في الحقيقة، بل قد ذُكر هذا الاسم على سبيل الاستعارة. والحقيقة أن إمامكم سيُبعث منكم ومن قومكم حاملا صفات ابن مريم. إن أصحاب الأفكار البالية يستنتجون من هذا الحديث أنه حين ينـــزل المسيح عيسى من السماء سينـــزل مستقيلا من نبوتهِ، ولن تكون له أدنى علاقة مع الإنجيل، بل سينضم إلى الأمة المحمدية ويعمل بالقرآن الكريم، وسيصلي خمس صلوات وسيُدعَى مسلما، ولكنهم لا يوضِّحون لماذا سيواجه هذا الانحطاط؟

على أية حال، لقد قبل إخواننا المسلمون أن ابن مريم سيأتي عندئذ مسلمًا، ويُظهر كونه من الأمة المحمدية، ولن يذكر مطلقا نبوته التي كان مشرَّفا بها من قبل. هذه في الحقيقة هي الطامة الكبرى التي واجهها إخواننا نتيجة حمل الاستعارة على الظاهر، فاضطروا لحرمان نبيٍّ من نبوته. ولو قبلوا المعنى الصريح الذي يتبيَّن بكل وضوح من كلام النبي الطاهر ﷺ، وصرّح به سابقا المسيح عليه السلام عن النبي يوحنا؛ لتخَلَّصوا من هذه المشاكل العويصة كلها، ولما احتاجوا لإخراج روح المسيح من الجنة، ولما اضطروا لعزل نبي مقدس من منصب النبوة، ولما ارتكبوا انتقادًا مبطَّنًا في حق النبي ﷺ، ولما اضطروا للاعتراف بنسخ أحكام القرآن.

لعل العذر الأخير لدى إخواننا هو: كيف يمكننا تطبيق بعض الكلمات التي وردت في الأحاديث الصحيحة كعلامات للمسيح عليه السلام؟ فقد ورد على سبيل المثال أن المسيح بعد نزوله سيكسر الصليب ويضع الجزية ويقتل الخنـــزير، وسيأتي عند رواج صفات اليهود والنصارى السيئة بين المسلمين.

أقول: ليس المراد من كسر الصليبِ القتالُ الماديّ، بل المراد هو كسر الديانة الصليبية روحانيا وإثبات بطلانها. والمراد من وضع الجزية واضح بيّن؛ ففي ذلك إشارة إلى أن القلوب في تلك الأيام ستُهيَّأ للانجذاب إلى الصدق والحق دون الحاجة لأي قتال. وستهُبُّ الرياح فيدخل الناس في الإسلام أفواجا.

إذن، عندما يُفتح باب الدخول في الإسلام على مصراعيه وينضم إليه عالَـــمٌ بأسره، فممن ستُوخَذ الجزية؟ ولكن لن يحدث كل ذلك دفعة واحدة، غير أنه قد وُضع أساسه من الآن.

والمراد من قتل الخنـــزير هو قتل مَن لديهم صفات الخنازير، وسيُغلَبون يومئذ بالحجة والبرهان، وسيقتلهم سيف الأدلة البيِّنة، وليس أن يخرج نبي مقدس إلى الفلوات ويتصيَّد فيها الخنازير.

فيا قومي الأعزاء، إنها استعارات كلها. والذين رزقهم الله فهما سليما من عنده سيفهمونها بكل سهولة، بل يفهمونها بذوقهم. إن مَثل حمل كلماتٍ فصيحة وبليغة على الحقيقة؛ كمَثل رسمِ حبيب وسيم بصورة الشيطان. الحق أن البلاغة كلها مبنية على الاستعارات الدقيقة، ولذلك فقد استخدم كلام الله الذي هو أبلغ الكلِم، هذا الأسلوب البليغ من الاستعارات بكثرة بحيث لا يوجد نظير هذا الأسلوب الدقيق في أي كلام آخر. إن حمل الاستعارات البليغة المستخدمة في القرآن الكريم على الحقيقة دائما، ليس إلا تشويها لهذا الكلام المبني على نظام معجز؛ فهذا الأسلوب لا يؤدي فقط إلى قلبِ الهدف الحقيقي من كلام الله البليغ رأسا على عقب، بل يقضي أيضا على البلاغة العظيمة الكامنة فيه. إن الأساليب المليحة والممتعة للتفسير هي تلك التي تراعي عظمةَ بلاغة المتكلم وأفكارَه الروحانية السامية أيضا، وليس أن يختلق المفسر من عنده معانيَ رديئة ومُقرفة للغاية وغير مناسبة تدخل في حُكم الهجو المليح، أو أن يَحصر كلام الله تعالى المقدس الذي يشمل الدقائق الطاهرة والدقيقة في بعض الكلمات البسيطة. لا أفهم لماذا تُفضَّل المعاني الغليظة والمقرفة والكريهة على الأسرار الدقيقة واللطيفة التي لا بد من وجودها في كلام الله تعالى وهي موجودة بكثرة؟ ولماذا لا تُعطَى الأهمية اللائقة للمعاني اللطيفة التي تطابق حكمة الله وعظمة كلامه؟ ولا أدري لماذا مُلئت رءوس علمائنا بتمرد غير مبرَّر وكأنهم لا يريدون أن يقربوا الحكمة الإلهية؟

لا شك أن الذين قاموا بأبحاث مضنية في هذا المجال لن يُنكروا بياني هذا بل سيستمتعون به، وسيطّلعون على حقيقة جديدة، وسيبيّنونها للقوم بكل شدة وحماس، ويفيدون الناس فائدة روحانية. أما الذين حصروا أفكارهم وعقولهم في نظرة سطحية فقط؛ فهم لا يستطيعون أن ينفعوا الإسلام بوجودهم بشيءٍ إلا أن يُثقلوا كفة اعتراضاتهم دون مبرر، ويثيروا ضجة من فراغ.

والآن أريد أن أبين أن هادينا وسيدنا ومولانا خاتَم المرسلين لم يكتف في بيان العلامات الفارقة بين المسيح الأول والمسيح الثاني بالقول بأن المسيح الثاني سيكون مسلما وسيعمل وفق شريعة القرآن الكريم، ويكون ملتزما بالصوم والصلاة وغيرهما من أوامر القرآن مثل بقية المسلمين، ويُولَد في المسلمين ويكون إماما لهم ولن يأتي بدين جديد ولن يدّعي نبوة مستقلة؛ بل بيّن ﷺ أيضا الفرق الواضح بين ملامح المسيح الأول والمسيح الثاني. فملامح المسيح الأول التي رآها النبي ﷺ ليلة المعراج هي التالية: "فَأَمَّا عِيسَى فَأَحْمَرُ جَعْدٌ عَرِيضُ الصَّدْرِ." (صحيح البخاري، كتاب الأنبياء). وفي الكتاب نفسه ورد عن النبي ﷺ أنه بيّن ملامح المسيح الثاني بأن شعره ليس جعدا بل قال: "رَجُلٌ آدَمُ كَأَحْسَنِ مَا يُرَى مِنْ أُدْمِ الرِّجَالِ تَضْرِبُ لِمَّتُهُ بَيْنَ مَنْكِبَيْهِ، رَجِلُ الشَّعَرِ."

يجب أن نفكر الآن: ألا تؤكد هذه العلامات المميِّزة التي بيّنها النبي ﷺ للمسيح الأول والمسيح الثاني بما فيه الكفاية على أنهما شخصان مختلفان؟ وأن تسميتهما بابن مريم استعارة لطيفة قد استُخدمت نظرا إلى المماثلة في طبيعتهما وصفاتهما الروحانية؟ والمعلوم أن شخصين صالحينِ يمكن أن يستحقا اسما واحدا للتشابه بين صفاتهما الباطنية، وكذلك يمكن أن يطلق اسمٌ واحد على شخصين سيئين بناء على اشتراكهما بالتساوي في صفة شرٍّ واحدة. المسلمون الذين

يسمون أولادهم بأسماء: "أحمد" أو "موسى" أو "عيسى" أو "سليمان" أو "داود" وغيرها من الأسماء يفعلون ذلك تفاؤلا، ويهدفون من وراء ذلك أن يُنشِئ أولادُهم أيضا في أنفسهم ملامح هؤلاء المقدسين الروحانية وصفاتهم بصورة أتم وأكمل وكأنهم نسخة منتسخة منهم.

إن طُرح هنا اعتراض: أنه يجب أن يكون مثيل المسيح الناصري أيضا نبيا؛ لأن المسيح كان نبيا. فالجواب الأول على هذا الاعتراض هو أن سيدنا ومولانا ﷺ لم يشترِط النبوة للمسيح الآتي، بل قال صراحة إنه سيكون مسلما وملتزما بشريعة القرآن الكريم مثل بقية المسلمين، ولن يفعل شيئا أكثر من ذلك لإظهار إسلامه وكونه إمامَ المسلمين.

وبالإضافة إلى ذلك، فإنني دون أدنى شكٍ قد جئت من الله تعالى، محدَّثا في هذه الأمة، والمحدَّث أيضا يكون نبيا من وجهٍ. ومع أن نبوته ليست تامة، لكن فيه جزء من النبوة لأنه يحظى بشرف مكالمة الله تعالى. وتُكشف عليه أمور غيبية، ويُنـــزَّه وحيُه من تدخّل الشيطان مثل وحي بقية الرسل والأنبياء. ويُكشف عليه لبُّ الشريعة، ويأتي مأمورا مثل الأنبياء تماما. ويكون واجبا عليه مثل الأنبياء أن يُعلِن عن نفسه، وإن منكره يستوجب نوعا من العقاب؛ ولا معنى للنبوة إلا أن تتحقق فيها الأمور المذكورة آنفًا.

ولو قُدِّم عذرٌ أن باب النبوة مسدود، وأن الوحي الذي ينـــزل على الأنبياء قد انقطع؛ لقلت: لم يُغلَق باب النبوة من كل الوجوه ولم ينقطع كل أنواع الوحي أيضا؛ بل إن باب الوحي والنبوة مفتوح جزئيا للأبد لهذه الأمة المرحومة. ولكن يجب الانتباه جيدا إلى أن النبوة التي بابها مفتوح إلى الأبد ليست نبوة تامة، بل كما قلت قبل قليل: إنها نبوة جزئية وتسمى بتعبير آخر

"**المحدَّثية**" التي تُنال بالاقتداء بالإنسان الكامل الذي يجمع في نفسه جميع كمالات النبوة التامة؛ أي سيدنا ومولانا محمد المصطفى ﷺ.

"فاعلم أرشدك الله تعالى أن النبي محدَّث والمحدَّث نبيٌّ؛ باعتبار المحدَّثية نوعا من أنواع النبوة. وقد قال رسول الله ﷺ: لم يبق من النبوة إلا المبشرات، أي لم يبق من أنواع النبوة إلا نوع واحد؛ وهي المبشرات من أقسام الرؤيا الصادقة والمكاشفات الصحيحة والوحي الذي ينـــزل على خواص الأولياء، والنورُ الذي يتجلى على قلوب قوم موجَع. فانظر أيها الناقد البصير، أَيُفهَم من هذا سد باب النبوة على وجه كلّي؟ بل الحديث يدلّ على أن النبوة التامة الحاملة لوحي الشريعة قد انقطعت، ولكن النبوة التي ليس فيها إلا المبشرات فهي باقية إلى يوم القيامة، لا انقطاع لها أبدا. وقد علمتَ وقرأتَ في كتب الحديث أن الرؤيا الصالحة جزءٌ من ستة وأربعين جزءا من النبوة، أي من النبوة التامة. فلما كان للرؤيا نصيب من هذه المرتبة، فكيف الكلام الذي يوحى من الله تعالى إلى قلوب المحدَّثين. فاعلم، أيدك الله، أن حاصل كلامنا أن أبواب النبوة الجزئية مفتوحة أبدا. وليس في هذا النوع إلا المبشرات أو المنذرات من الأمور المغيّبة أو اللطائف القرآنية والعلوم اللدنِّية. وأما النبوة التي هي تامة كاملة جامعة لجميع كمالات الوحي؛ فقد آمنا بانقطاعها من يوم نزل فيه: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾[17]."

---

[17] *الأحزاب: ٤١*

إذا طُرح سؤال: ما هي تلك الصفة والقوة الروحانية التي تشكِّل قاسما مشتركا بيني وبين المسيح ابن مريم؟

فجوابه: إنها صفة جامعة أُودعتْ قوانا الروحانية بوجه خاص؛ جانب منها ينـــزل إلى الأسفل وجانبها الثاني يصعد إلى الأعلى. والمراد من الجانب السفلي هو الحرقة والمواساة العظيمة لخلق الله التي توطد الصلة وتقوي العلاقة بين الداعي إلى الله وتلاميذه المتحمسين، فتنشر القوةَ النورانية - الموجودة في النفس الطيبة للداعي إلى الله - إلى جميع الأغصان الخضراء. والمراد من الجانب العلوي هو ذلك الحب العظيم والمرتبط بالإيمان القوي الذي يتولد في قلب العبد بمشيئة الله تعالى، ثم يجذب إلى نفسه حبَّ الرب القدير. وباجتماع هذين الحبَّينِ- واللذينِ هما في حُكم الذكر والأنثى- تتولد صلةٌ قوية بين الخالق والمخلوق، وكما تشتعل النار في الحطب، يشتعل حب المخلوق، بنار حب الله تعالى؛ وبذلك يتولّد شيء ثالث يسمّى روح القدس. والإنسان الذي يصل إلى هذه المرتبة؛ فإنه يُعتبر قد وُلد ولادةً روحانية حين يخلق الله تعالى فيه- بإرادته الخاصة- حبا من هذا النوع.

ليس في غير محله القولُ على سبيل الاستعارة، عن الحب الذي بلغَ هذا المبلغ، إن الروح المفعمة بحب الله تعالى تتسبب، بمشيئة الله ﷻ، في ولادة جديدة لروح الإنسان المليئة بالحب للمخلوق. ولهذا السبب تكون لهذه الروح المفعمة بالحب علاقة البنوة على سبيل الاستعارة مع روح الله التي تنفخ المحبة. ولأن روح القدس تتولد في قلب الإنسان نتيجة التقائهما؛ فيمكن القول بأنها بمنـــزلة الابن لكليهما، وهذا هو الثالوث المقدس الذي لا بد منه في هذه

الدرجة من الحب، وقد اتخذته الطبائع الخبيثة شركًا، واعتبروا مجرد ذرةٍ هالكة الذات، باطلة الحقيقة؛ شريكا لله الأعلى واجبِ الوجود.

أما إذا طُرح هنا سؤال: إذا كانت هذه المرتبة مسَلَّم بها لي وللمسيح الناصري عليه السلام؛ فأي مرتبةٍ بقيت لسيدنا ومولانا سيد الكل وأفضل الرسل خاتَم النبيين محمد المصطفى ﷺ؟ فليتضح في الجواب أنها المرتبة العليا والسامية التي خُتمت على تلك الذات المقدسة الكاملة الصفات؛ ولا يسع أحدا أن يدرك كيفيتها، دع عنك أن ينالها أحد سواه ﷺ.

"سوى الرب الرحيم؛ من يستطيع استيعاب عظمة أحمد ﷺ، فقد محى نفسه حتى سقطت "الميم" من وسط اسمه.

لقد فني في رفيقه الأعلى حتى صار وجوده كله صورة للرب الرحيم.

إن شذى ذلك الحبيب الأزلي يفوح من وجهه الكريم، وإن ذاته مَظهرٌ لذات الله القديم.

لا أرى كقلب أحمد من عرشٍ عظيم، وإن نسبوني إلى الإلحاد والضلال.

الحمد والشكر أنني على عكس أهل الدنيا، أشري مئات الآلام طمعا في ذلك النبع من النعيم.

بفضل الله تعالى ولطف تلك الذات المقدسة؛ أعادي الفرعونيين حبًّا بهذا الكليم.

لو ظهرتْ عليَّ مرتبتُه ﷺ ومكانته العظيمة لذكرتها حتما لو وجدتُ شخصا سليم الفطرة في هذا السبيل.

في سبيل عشق محمد نفسي وروحي الفداء، تلك منيتي وهذا دعائي وعزمُ قلبي الصميمُ." [١٨]

لمعرفة المرتبة العظيمة للنبي ﷺ لا بد من القول إن مراتب القرب والحب منقسمة إلى ثلاثة مراتب من حيث درجاتها الروحانية:

الدرجة الأولى والأدنى - وهي أيضا كبيرة في الحقيقة - هي أن تُسخِّن نارُ حب الله لوحَ قلب الإنسان، وقد تسخِّنه لدرجة أنه يمكن أن تصدر من المتأثِّر بعض الأعمال الخاصة بالنار، ومع ذلك يمكن أن تبقى فيه نقطة الضعف فلا ينشأ فيه بريقُ النار. فالحرارة التي تتولد في الروح بعد نزول جذوة حب الله على الحب البالغ هذا المبلغ؛ تسمّى السكينة والاطمئنان أحيانا، أو الملاك أحيانا أخرى.

المرتبة الثانية للحب هي تلك التي بيَّنتها آنفا، أي حين يجتمع كِلا النوعين من الحب، وتُسخِّن نارُ حبِّ الله لوحَ قلب الإنسان بحيث يتولد فيه نوع من البريق على غرار النار. ولكن لا ترافق هذا البريقَ قوةٌ على الاشتعال أو الالتهاب، وإنما هو بريق محض؛ ويسمى روح القدس.

المرتبة الثالثة للحب أن تقع الجذوة المشتعلة لحب الله على فتيل حب الإنسان القابل للاشتعال وتُشعله، فيستولي حبُّ الله على كيان الإنسان وكلِّ ذرة من ذراته، ويجعله مظهرا أتم وأكمل له ﷻ. وفي هذه الحالة لا تَهَبُ نارُ حب الله لوحَ قلب الإنسان بريقا فحسب، بل يشتعل وجوده كله على إثر هذا البريق، وتنوِّر ألسنةُ النار ولهيبُها الجوَّ المحيطَ بها كوضح النهار دون أن يبقى للظلام أي أثر، بل ويصبح الوجود كله نارا تماما مع جميع صفاتها الكاملة.

---

[١٨] *أبيات فارسية مترجمة. (المترجم)*

وهذه الحالة التي تتولد بصورة النار المشتعلة نتيجة وصال النوعين من الحب تسمى "الروح الأمين"، لأنها توفر الأمن من كل ظلمة، وهي بريئة من كل شائبة، وتسمى "شديد القوى" أيضا، لأن تلك القوة العظيمة هي الوحي الذي لا يُتصور وحيٌ أقوى منه، وتسمَّى "ذا الأفق الأعلى" أيضا. ذلك لأنه التجلي الأعظم لوحي الله تعالى الذي يسمى باسم: "رأى ما رأى" أيضا، لأن تقدير هذه الحالة يفوق تصور المخلوقات وأفكارهم جميعا. وهذه المرتبة قد حظي بها شخص واحد في الدنيا، أي الإنسان الكامل ﷺ الذي اكتملت عليه سلسلة البشرية كلها، وبلغت حلقة القدرات البشرية فيه أوج كمالها. والحق أنه ﷺ هو النقطة الأخيرة في الجانب الأعلى لسلسلة خلق الله، والمنتهى لكافة مراتب الارتقاء. إن حكمة الله تعالى بدأت سلسلة الخلق من الأدنى والأسفل على الإطلاق، وأوصلتها إلى النقطة الأعلى على الإطلاق، والتي تسمَّى بتعبير آخر "محمدًا ﷺ"، أي الذي حُمِّد كثيرا؛ أي هو مظهر الكمالات التامة. فكما حظي ذلك النبي ﷺ بالمكانة الأعلى والأرفع فطرةً، كذلك وُهبت له المرتبة الأعلى والأرفع خارجيا من الوحي أيضا، وحظي بالمرتبة الأعلى والأرفع من الحب أيضا. هذه هي المرتبة العليا التي لم يصلها المسيح عليه السلام ولا أستطيع أنا الوصول إليها، وتسمى: مقام الجمع ومقام الوحدة التامة. إن الأنبياء السابقين الذين بشروا بمجيء النبي ﷺ قد فعلوا ذلك بناء على هذه العلامة، وأشاروا إلى هذه المرتبة. فكما يمكن- على سبيل الاستعارة- إطلاق مقام البنوة على مرتبتي أنا ومرتبة المسيح عليه السلام، كذلك إن مرتبة النبي ﷺ هي من العلو والرفعة بحيث أنّ الأنبياء السابقين قد ذكروا - على سبيل الاستعارة - ظهور صاحب هذه المرتبة على أنه ظهور الله، وعَدُّوا مجيئه مجيء الله. وفي هذا ضرب المسيح عليه السلام

مثَل الكرّامين؛ وهو أن صاحب الكَرْم وهو الله تعالى أرسل في البداية عبيده ليأخذوا الثمار، أي أرسل مقرَّبيه الحائزين على المرتبة الأولى عنده، والمراد منهم هو جميع الصلحاء الذين كانوا في زمن المسيح وفي قرنه ولكنهم أتوا قبله بقليل. وعندما رفض الكرّامون إعطاء الثمار، أرسل صاحبُ الكَرْم ابنَه إليهم مؤكِّدا، لكي يعطوه الثمار كونه ابنا له. والمراد من ذلك الابن هو المسيح عليه السلام نفسه الذي يحتل المرتبة الثانية من القرب والحب. ولكن الكرّامين لم يعطوه أيضا الثمار بل قتلوه في زعمهم. ثم يقول المسيح عليه السلام إن صاحب الكَرْم سيأتي الآن بنفسه، أي سيأتي الله تعالى بنفسه ليهلك الكَرَّامين ويعطي الكَرْم لكرّامين يسلِّمون الثمار في حينها.

المراد من مجيء الله هنا هو مجيء النبي صلى الله عليه وسلم الذي يحتل المرتبة الثالثة من القرب والحب[١٩]. إنها مراتبُ روحانية كلها، وقد ذُكرت على سبيل الاستعارة

[١٩] ليس المسيح الناصري عليه السلام وحده الذي قال عن سيدنا ومولانا المقدس خاتم النبيين إن مجيئه صلى الله عليه وسلم في الدنيا إنما هو مجيء الله تعالى في الحقيقة. بل قال الأنبياء الآخرون أيضا كلاما مثله في نبوءاتهم عن النبي صلى الله عليه وسلم وعدّوا مجيئه مجيء الله على سبيل الاستعارة. بل سموه صلى الله عليه وسلم باسم الله لكونه مظهرا أتم للألوهية. فقد ورد في مزامير داود عليه السلام: "أَنْتَ أَبْرَعُ جَمَالًا مِنْ بَنِي الْبَشَرِ. انْسَكَبَتِ النِّعْمَةُ عَلَى شَفَتَيْكَ، لِذلِكَ بَارَكَكَ اللهُ إِلَى الأَبَدِ *(أي جعلك خاتم الأنبياء)* تَقَلَّدْ سَيْفَكَ عَلَى فَخْذِكَ أَيُّهَا الْجَبَّارُ، جَلاَلَكَ وَبَهَاءَكَ. وَبِجَلاَلِكَ اقْتَحِمِ. ارْكَبْ. مِنْ أَجْلِ الْحَقِّ وَالدَّعَةِ وَالْبِرِّ، فَتُرِيَكَ يَمِينُكَ مَخَاوِفَ. نَبْلُكَ الْمَسْنُونَةُ فِي قَلْبِ أَعْدَاءِ الْمَلِكِ. شُعُوبٌ تَحْتَكَ يَسْقُطُونَ. كُرْسِيُّكَ يَا اَللهُ إِلَى دَهْرِ الدُّهُورِ. قَضِيبُ اسْتِقَامَةٍ قَضِيبُ مُلْكِكَ. أَحْبَبْتَ الْبِرَّ وَأَبْغَضْتَ الإِثْمَ، مِنْ أَجْلِ ذلِكَ مَسَحَكَ اللهُ إِلهُكَ بِدُهْنِ الابْتِهَاجِ أَكْثَرَ مِنْ رُفَقَائِكَ." (الْمَزَامِير ٤٥ : ٢-٧)

بكلمات مناسبة حسب مقتضى الحال. وليس المراد هنا البنوةُ الحقيقية ولا الألوهية الحقيقة.

ليس في غير محله القول هنا بأن ما فسرتُ به "روح القدس" أو "الروح الأمين" وغيرهما؛ لا يناقض معتقدات المسلمين عن الملائكة بشيء، لأن الباحثين المسلمين لا يعتقدون قط أن الملائكة ينــــزلون إلى الأرض بوجودهم المادي مشيا على الأقدام مثل الناس، إذ إن هذه الفكرة باطلة بالبداهة، لأنه لو كان ضروريا أن ينــــزل الملائكة إلى الأرض بوجودٍ مادي لإنجاز مهماتهم الموكولة إليهم، لاستحال عليهم إنجازها على الإطلاق. فمثلا: إن ملاك الموت - الذي

من المعلوم أن جملة المزامير: "كُرْسِيُّكَ يَا اَللهُ إِلَى دَهْرِ الدُّهُورِ. قَضِيبُ اسْتِقَامَةٍ قَضِيبُ مُلْكِكَ" استعارة محضة، والمراد منها أن تُظهَر عظمة محمد ﷺ الروحانية. كذلك ورد في سِفر النبي إشعياء أيضا الأمر نفسه حيث ورد فيه: "هُوَذَا عَبْدِي الَّذِي أَعْضُدُهُ، مُخْتَارِي الَّذِي سُرَّتْ بِهِ نَفْسِي. وَضَعْتُ رُوحِي عَلَيْهِ فَيُخْرِجُ الْحَقَّ لِلأُمَمِ. لاَ يَصِيحُ وَلاَ يَرْفَعُ وَلاَ يُسْمِعُ فِي الشَّارِعِ صَوْتَهُ. قَصَبَةً مَرْضُوضَةً لاَ يَقْصِفُ، وَفَتِيلَةً خَامِدَةً لاَ يُطْفِئُ. إِلَى الأَمَانِ يُخْرِجُ الْحَقَّ. لاَ يَكِلُّ وَلاَ يَنْكَسِرُ حَتَّى يَضَعَ الْحَقَّ فِي الأَرْضِ، وَتَنْتَظِرُ الْجَزَائِرُ شَرِيعَتَهُ." (إِشَعْيَاءَ ٤٢ : ٢-٤)... الرَّبُّ كَالْجَبَّارِ يَخْرُجُ. كَرَجُلِ حُرُوبٍ يُنْهِضُ غَيْرَتَهُ. يَهْتِفُ وَيَصْرُخُ وَيَقْوَى عَلَى أَعْدَائِهِ. (المرجع السابق العدد: ١٣)

من الواضح أن الجملة: "الرَّبُّ كَالْجَبَّارِ يَخْرُجُ" تشير على سبيل الاستعارة إلى ظهور النبي ﷺ بالهيبة. وإضافة إلى ذلك فقد استخدم كثير من الأنبياء الآخرين أيضا هذه الاستعارة لبيان مرتبة النبي ﷺ. ولكنني أكتفي بهذا القدر، لأن ذكر تلك الأماكن كلها يطول كثيرا. أما ما ذكرتُ من مراتب القرب والحب الثلاثة، وأثبَتُّ أن النبي ﷺ يحتل المرتبة الثالثة منها، فإن هذه الفكرة ليست مبنية على اجتهادي الشخصي بل، كشفها الله عليّ إلهاما، منه.

يقبض في ثانية واحدة أرواح آلاف الناس الساكنين على بُعد آلاف الأميال عن بعضهم بعضا في مختلف البلاد والأمصار - لو اضطر للذهاب مشيا على الأقدام إلى بلدٍ كل واحد ودخول مدينته ثم بيته لقبض الأرواح متكبدا كل هذه المشقة؛ لما كفَتْه عدة شهور أيضا دع عنك ثانية واحدة. ثم هل يُعقل أن يتحرك أحد على غرار الإنسان ويكمل جولته في العالم كله في لمح البصر أو أقل من ذلك؟ كلا، بل الملائكة لا يتنحّون قيد شعرة عن مقاماتهم التي حددها الله لهم في القرآن الكريم بقوله: ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ (الصافات: ١٦٥-١٦٦)

فكما أن الشمس تبقى في مدارها ولكن حرّها وضوءها ينتشران على الأرض ويفيدان كل شيء على وجه البسيطة بحسب خواصهما، كذلك تكون الكيانات الروحانية؛ سواء أسميناها النفوس الفلكية حسب تصور اليونانيين أو أرواح الكواكب بحسب مصطلح "دساتير" و"الفيدا"، أو سميناها "ملائكة الله" بكل بساطة على غرار الموحِّدين[٢٠]. والحق أن هذا المخلوق الغريب مستقر في مكانه وعاكف على إيصال كل شيء في الأرض إلى كماله المطلوب بحكمة الله الكاملة، فتقوم هذه الكيانات الروحانية بالخدمات المادية والروحية. كما أن للشمس والقمر والكواكب الأخرى تأثيرا في أجسامنا وقوانا المادية، كذلك تؤثر الملائكة في قلوبنا وأذهاننا وكافة قوانا الروحانية تأثيرات مختلفة بحسب مواهبنا. كل ما يملك قدرة على التحول إلى شيء ذي بال، سواء أكان ترابا أو

[٢٠] إن الملائكة يسمَّون ملائكةً لأنهم ملاك الأجرام السماوية وملاك الأجسام الأرضية، بمعنى أنهم بمنـــزلة الروح لقيامها وبقائها. وأيضا يسمَّون ملائكة لأنهم يقومون بأعمال الرسل أيضا، منه.

قطرة ماء في المحار أو النطفة التي تُقذف في الرحم؛ تتحول بتربية ملائكة الله الروحانية إلى لَعْلٍ أو ألماسٍ أو ياقوتٍ أو لؤلؤة لامعةٍ من الجواهر الثمينة، أو يصبح إنسانا صاحب ذهن وقلب ذي صفات عظيمة.

"الدساتير" الذي يعتبره المجوس كتابا موحًى به، يدَّعي أنه أوحي به في العصور الغابرة السحيقة وسبق "الفيدا" عشرات الملايين من السنين، ويقال إن تاريخ الفيدا يعود إلى مليار و ٩٦٠ مليون عام، أما الدساتير فيدّعي بكونه أقدم من ثلاثة تريليونات عام. ولقد كتبنا هذا متوخين الحذر الشديد بينما يدّعي "الأفستا" أن تاريخه لا يعود إلى ثلاثة تريليونات عام فحسب بل ثلاث مئة تريليون عام. إن هذا الكتاب لا يعتبر هذه الكيانات الروحانية التي تتعلق بالكواكب والسماوات ملائكةً فقط، بل يؤكد على عبادتها أيضا. كذلك إن الفيدا أيضا لا يعتبر هذه الكيانات الروحانية وسائط وخداما فقط، بل يمدحها ويُثني عليها في عدة أماكن ويحضّ على طلب الدعاء منها. ومن الممكن أن تكون بعض التعاليم المحتوية على الكفر قد أضيفت بالتحريف إلى تلك الكتب وأُلحقت بها كما في الفيدا.

وإضافة إلى ذلك هناك تعاليم أخرى كثيرة من هذا القبيل لا مبرر لها. ومما ورد فيها أنه ليس لهذا الكون خالق وأن كل شيء أزلي وخالق نفسه من حيث مادته وروحه. وهناك تعليمٌ بأنه لا يستطيع أحد في وقت من الأوقات التخلص من دوامة التناسخ النحسة مطلقًا، وتعليمٌ بأن المرأة المتزوجة تستطيع أن تضاجع شخصا آخر بُغية الحصول على الذكور من الأولاد في حالة عدم وجودهم لديها. وتعليمٌ بأن كبار المقدسين أيضا لا يستطيعون نيل النجاة الأبدية وإن كانوا كبار الصلحاء الذين نزلت عليهم الفيدات الأربعة، ولا يستحقون أن

يُذكروا بالاحترام، بل يمكن أن يتحولوا، ولعلهم قد تحوّلوا، إلى أشياء أخرى كالدواب، بعد مرورهم المتكرر بدوامة التناسخ. ويزعم المعتقدون بالتناسخ أن الإنسان، وإن كان يحتل مرتبة أعلى من علماء الفيدات أو أنبيائها؛ يمكن له بل من الضروري حسب قانون الطبيعة أن يتولد ولادة جديدة في حين من الأحيان بصورة حشرة أو دابة مقرفة أو خلق حقير آخر.

هذه كلها تعاليم باطلة اختلقتها أفكار الإنسان السخيفة. والذين أجازوا هذه الأمور الوقيحة والانحرافات البعيدة عن العز والشرف لكبارهم ومرشديهم؛ أجازوا أيضا الدعاء من أرواح الكواكب وعبادتها كعبادة الله. أما القرآن الذي يفتح سبل التوحيد والتحضر بكل معنى الكلمة لم يسمح قط أن يُعبد مع الله خلقٌ آخر، أو أن يكون إيمان المرء بقدرات الله على الربوبية ناقصة، أو أن لا يعتبره عَجَلَّ مبدأً ومصدرًا لكل شيء، أو أن يُدخل الإنسان بعض الأمور الوقحة في أساليب عيشه.

أعود إلى ذكر الملائكة وأقول إن القرآن الكريم قد تناول ذكرهم بأسلوب سلس وواضح بحيث لا يسع الإنسان إلا قبوله. والتعمق في القرآن الكريم يبين أن هناك حاجة ماسة إلى الوسائط لتربية جميع كائنات الأرض ظاهريًا وباطنيًا. ويتبين بصراحة تامة من بعض الإشارات الواردة في القرآن الكريم أن بعض الأرواح الطيبة التي تسمّى ملائكة، لها علاقات مختلفة مع طبقات السماء؛ فبعضهم يتحكمون في الرياح بحكم تأثيرهم الخاص بها، وبعضهم يتحكمون في الأمطار، وبعضهم يُلقون على الأرض تأثيرات أخرى.

فلا بد أن تكون لتلك الأرواح الطيبة علاقة - بحكم علاقتها مع النور - مع الأجرام المضيئة والنورانية التي في السماء. ولكن يجب ألا تُعتبَر تلك العلاقة

كما لكل كائن حي على وجه الأرض روحٌ. بل إن لتلك النفوس الطيبة – بسبب نورها وضيائها الروحاني – علاقة مجهولة الكنه مع الأجرام المضيئة. وإن طبيعة تلك العلاقة هي أنه لو افترضنا انفصال تلك النفوس الطيبة عن النجوم لوقع الخلل في جميع قواها. والمعلوم أن جميع الأجرام مسخَّرَة لأعمالها بالقوة الكامنة بيد تلك النفوس. كما أن الله تعالى كالروح للعالَم كله (ليس المراد هنا التشبيه الكامل) كذلك إن هذه النفوس النورانية بمنــزلة الروح للكواكب. وإذا حدث الانفصال بينها، فلا بد من حدوث فساد كبير في كيفية وجودها أصلا. لم يختلف أحد إلى يومنا هذا في أن كل النجوم والكواكب في السماء تعمل دائما على تربية كائنات الأرض وتكميلها.

باختصار إنها حقيقة ثابتة ومتحققة تماما أن الكواكب السماوية تؤثر ليل نهار في كافة النباتات والجمادات والحيوانات، حتى إن الفلاح الغافل والساذج أيضا يوقن أن لضوء القمر على الأقل تأثيرا حتميا في إنعاش الفواكه وزيادة نموّها، وأن لحرارة الشمس تأثيرا في نضجها وحلاوة مذاقها، وأن لبعض الرياح تأثيرا حتميا في كثرة الثمار. فما دامت سلسلة الكون المادية تتربى وتتأثر بتأثيرات تلك الأشياء؛ فأي شك في أن تؤثر النفوس النورانية بإذن ربها في السلسلة الباطنية أيضا، التي لها علاقة قوية مع الأجرام المضيئة كعلاقة الروح بالجسد.

ليكن معلوما أيضا أنه قد يبدو من سوء الأدب ظاهريا الاعتبار أن هناك واسطة بين الله وأنبيائه الأطهار لإفاضة أنوار الوحي، ولكن يمكن أن يُفهم جيدا بشيء من التدبر أن ذلك ليس سوء أدبٍ قط، بل هو مطابق تماما لقانون الطبيعة العام المشهود والملحوظ بكل وضوح في كل شيء في الدنيا. فإننا نرى

أن الأنبياء عليهم السلام؛ أيضا محتاجون لهذه الوسائط من حيث أجسامهم وقواهم المادية. وإن عيون الأنبياء أيضا، مهما كانت نورانية ومباركة، لكن ليس بمقدورها أن ترى شيئا - كما عيون عامة الناس - بغير واسطة ضوء الشمس أو ما يقوم مقامها، ولا يستطيعون أن يسمعوا شيئا بغير واسطة الهواء. لذا لا بد من القبول أيضا أن روحانية الأنبياء تتأثر حتما، بل تتأثر أكثر من روحانية غيرهم بالنفوس النورانية التي في الكواكب، لأنه كلما كانت الموهبة لاستقبال التأثير أصفى وأكمل؛ كان التأثير أصفى وأكمل. ويتبين من القرآن الكريم أن للكواكب والنجوم روحا حسب قوالبها، ويمكن تسميتها بنفوس الكواكب أيضا. وكما توجد في الكواكب والنجوم، بحسب قوالبها المادية، خواص مختلفة تؤثر في كل شيء في الأرض حسب الكفاءة، كذلك في نفوسها النورانية أيضا خواص مختلفة الأنواع والأقسام تؤثر بإذن الله الحكيم العليم في بواطن كائنات الأرض. وهذه النفوس النورانية تظهر على العباد الكُمّل متجسدةً بأجساد وتُرَى متمثلةً في صورة بشر.

وليكن معلوما أيضا أن هذا الكلام ليس من قبيل الخطاب البحت، بل يشمل حقيقة لا بد لطالب الحق والحكمة من قبولها؛ لأننا قد قبلنا أن الأجرام السماوية تربي الأجسام الأرضية حتما، وكلما أمعنّا النظر في الأجسام الأرضية من حيث الاستقراء نرى أمارات هذه التربية في كل شيء بالبداهة، سواء كان من النباتات أو الجمادات أو من الحيوانات. فنحن مضطرون للقبول بناء على التجربة الصريحة أن لهذه النفوس النورانية علاقة بتقدم سلسلة الكمالات الروحانية وتنوير القلب والذهن. وبسبب هذه العلاقة؛ جعلت الشريعة الغراء واسطة الملائكة بين الله ورسله - على سبيل الاستعارة- ضرورية. وقد عُدّ

الإيمان بها من واجبات الدين. والذين لم يفهموا هذه الحقيقة لجهلهم البغيض مثل الآريين والبراهمو؛ اعترضوا، للؤمهم غير المبرر وبغضهم الذي مُلئت به قلوبهم، على تعليم القرآن الكريم قائلين بأنه يعُدُّ واسطة الملائكة بين الله ورسله ضرورية. ولكنهم لم يفهموا حقيقة أن قانون الله تعالى عن التربية الجاري على وجه الأرض؛ مبني على المبدأ نفسه. ألم يكن كبار علماء الهندوس الذين نزلت عليهم الفيدات الأربعة - بحسب قول الهندوس- محتاجين إلى تأثيرات الأجرام السماوية لسلامة قواهم الجسدية؟ هل كانوا قادرين على الرؤية بعيونهم وحدها دون الحاجة إلى ضوء الشمس؟ أو هل كانوا قادرين على سماع صوتٍ بغير واسطة الهواء؟ لا شك أن الجواب بالبداهة هو: كلا، بل كانوا حتمًا محتاجين جدا إلى تأثير الأجرام السماوية. ثم متى وأين أنكرت فيدات الهندوس الملائكة؟ بل الحق أنها بالغت كثيرا في الاعتراف بهذه الوسائط وتقديرها، حتى اعتبرت مرتبتها تضاهئ مكانة الله تعالى. فانظروا إلى "ريغ فيدا" مثلا؛ لتعرفوا كم جاء فيه التأكيد على عبادة الأجرام السماوية والأجسام، وكيف سُوِّدت أوراقٌ كثيرة في مدحها والثناء عليها، وكيف قُدّمت لها بالتضرع والابتهال الأدعيةُ التي ما أجيبت. ولكن شريعة القرآن لم تفعل ذلك، بل ذكرت النفوس النورانية، المرتبطة بالأجرام السماوية والعناصر والدخانات ارتباط الروح بالجسم، باسم الملائكة أو الجِنة. ولم تعتبر الملائكة النورانيين - الذين لهم مكانة خاصة في الكواكب والنجوم النورانية - واسطة بينه ﷻ وبين رسله لدرجة اعتبار الملائكة قادرين ومخوَّلين، بل بيّن قدراتهم مقابله سبحانه وتعالى كالميت في يد الحيّ؛ يستخدمه الحي كما يشاء. لذا فقد أُطلق في بعض الأماكن من القرآن الكريم على كل ذرة من الأجسام أيضا اسم الملائكة؛ لأن كل تلك الذرات تسمع

لربها الكريم وتفعل ما تؤمَر. فمثلا إن المواد التي تُحدث التغييرات في جسم الإنسان باتجاه الصحة أو العِلَّة، فإن كل ذرة من تلك المواد تتقدم أو تتأخر بحسب مشيئة الله.

والآن يجب التدبر جيدا: هل الإيمانُ بالوسائط المذكورة في القرآن الكريم يستلزم أي نوع من الشرك؟ أو أيّ خلل يقع في قدرة الله وعظمته؟ بل الحق أنها أسرار المعرفة ودقائق الحكمة التي تلاحَظ في كل صفحة من صفحات قانون الطبيعة، وبدون الإيمان بهذا النظام لا تثبت قدرة الله الكاملة، ولا يمكن أن تعمل ألوهيته على ما يرام. وكيف يمكن أن يجري الكون كله بحسب مشيئة الله ما لم تُظهر كل ذرة انقيادها التام له كالملائكة؟ هل لأحد أن يوضّح لي ذلك؟ وإذا كان النظام الروحاني لملائكة السماء يعيب قدرة الله تعالى شيئا، فكيف لا يَطْعَنُ في قدرة الله الكاملة ذلك الإيمانُ بنظام الملائكة المادي الذي يماثل النظام الروحاني تماما؟ بل الحق أن معارضينا بمن فيهم الآريون وغيرهم قد أثاروا — لشدة عماهم - اعتراضات لا أصل لها من الصحة، وإن أساسها موجود في معتقداتهم مع عقائد إشراكية كثيرة. فقد عدُّوا - لفقدان بصيرتهم - الحق الصراح باطلا بغير حق. *كما يقول بيت- بالفارسية- ما تعريبه:*

"لتُفقأ عينٌ سيئة الرؤية؛ إذ لا عمل لها إلا البحث عن العيوب"

فليكن معلوما أيضا أن مرتبة الملائكة الخواص بحسب الشرع الإسلامي ليست أعلى من خواصّ البشر، بل إن الخواصّ من البشر أفضل من خواصّ الملائكة. وكونهم الوسائط في النظام المادي أو النظام الروحي لا يدل على أفضليتهم، بل هم مسخَّرون للخدمة كالخَدَم حسب توجيه القرآن الكريم. إذ

يقول جلّ شأنه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾[٢١]. أي لقد سخّر الله تعالى الشمس والقمر لخدمتكم. فمثلا إذا كان ساعي البريد، يوصل رسائل الـــمَلِك إلى إقليم أو حاكم، فهل يثبت من ذلك أن ساعي البريد الذي كان واسطةً بين الملك والحاكم العام أفضل من الحاكم نفسه؟ فاعلموا أن هذا هو حال الوسائط الذين يبلِّغون مشيئة الله إلى الأرض ويعكفون على تنفيذها. لقد قال الله تعالى بكل صراحة في عدة مواضع من القرآن الكريم بأن كل ما خُلق في السماء من الأشياء فإنها قد خُلقت لفائدة الإنسان فقط. والإنسان أعلى وأرفع مرتبة من كل شيء، فقد سُخِّر كل شيء لخدمته كما يقول تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا﴾[٢٢]، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[٢٣]. أي سخر لكم الشمس والقمر اللذَينِ لا يبقيان على حالة واحدة من حيث الكيفية والخواص؛ فمثلا الصفات التي تتحلى بها الشمس في أشهر الربيع لا تتحلى بها في الخريف قط. فمن هذا المنطلق تكون الشمس والقمر في حركة ظاهريةٍ مستمرة، وبحركتهما يحل فصل الربيع حينا ويحل فصل الخريف في حين آخر. وفي فترة تظهر لهما صفات وخواص معينة ثم تظهر في فترة أخرى على عكس ذلك تماما.

[٢١] *إبراهيم:* ٣٤

[٢٢] *إبراهيم:* ٣٤- ٣٥

[٢٣] *البقرة:* ٣٠

ثم يقول تعالى في آية أخرى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[٢٤]. أي خلقنا الإنسان على أعلى درجة من الاعتدال، وهو الأحسن والأفضل اعتدالا من جميع المخلوقات. وقال أيضا: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[٢٥]. أي عرضنا أمانتنا – وهي عشق الله وحبه وطاعته الكاملة حتى بعد المرور من الابتلاء – على ملائكة السماء جميعا، وعلى كافة مخلوقات الأرض، وعلى الجبال، أي على الكائنات الضخمة والقوية ظاهريا، ولكن كل هذه المخلوقات رفضت حمل هذه الأمانة، وخافت حملها نظرًا لعظمتها. ولكن الإنسان حملها لأنه كان يتحلى بصفتين اثنتين: أولاهما أنه كان جاهزا ليظلم نفسه في سبيل الله. والصفة الثانية أنه كان قادرا على أن يبلغ في حب الله مبلغا ينسى فيه نفسه تماما. وقال تعالى في موضع آخر: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ﴾[٢٦]. أي أنه تعالى (الذي أنت مظهره الأتم) يقول للملائكة: إذا خلقتُ هذا الإنسان بكمال الاعتدال ونفخت فيه من روحي؛ فقعوا له ساجدين؛ أي انصرفوا إلى خدمته بكل تواضع واخدموه كأنكم تسجدون له ... ليكن معلوما أن أمر السجدة لا يتعلق بالزمن الذي خُلق فيه آدمُ، بل هذا أَمرٌ منفصلٌ أُمِر به الملائكة بأنه كلما وصل إنسانٌ مرتبة الإنسانية الحقيقية وحظي بالاعتدال الإنساني، وسكنتْه روح الله تعالى؛

[٢٤] *التين: ٥*

[٢٥] *الأحزاب: ٧٣*

[٢٦] *ص: ٧٢- ٧٥*

فليسجدوا لذلك الإنسان الكامل. أي اِنزِلوا عليه بالأنوار السماوية وصلّوا عليه. فهذه إشارة إلى السُّنة القديمة التي يُعامل بها الله تعالى عباده الأصفياء دائما. فكلما يحرز أحدٌ تسوية روحانية في عصر من العصور وتسكنه روح الله تعالى - أي يفني نفسه وينال مرتبة البقاء بالله - يبدأ نزول الملائكة عليه بوجه خاص. مع أن الملائكة يُسخَّرون لنصرته وخدمته في المرحلة الابتدائية من سلوك ذلك الإنسان أيضا، ولكن هذا النـــزول يكون أتم وأكمل حتى يدخلَ في حُكم السجود. ولقد بيّن الله تعالى باستخدام كلمة السجود أن الملائكة ليسوا أفضل من الإنسان الكامل، بل يسجدون للإنسان الكامل تعظيما وتبجيلا له مثل الخدَم في بلاط الـــمَلِك.

كذلك بيّن الله تعالى علوّ مرتبة الإنسان مقارنة مع جميع كائنات الأرض والسماء بإشارات واستعارات دقيقة في سورة الشمس بقوله: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا * كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾.[٢٧] .....أي أنه ﷻ أقسم بنفس الإنسان، وبالذي وهب له كافة الكمالات المتفرقة للاعتدال الكامل والاستقامةِ الكاملةِ، ولم يحرمه من أي كمال، بل جمع فيه جميع أنواع الكمالات المذكورة تحت قائمة الأقسام المذكورة آنفًا بحيث تجمع نفس الإنسان الكامل في ذاتها كمال الشمس وضوءها، وتتحلى نفسه بصفات القمر أيضا،

---

[٢٧] الشمس ٢- ١٦

لأنه قادر على اكتساب الفيض من غيره، ويستطيع أيضا أن يحرز نورا باطنيا باستمداده من نور آخر. وفيه صفات النهار المشرق أيضا؛ فكما أن العمَّال والأُجراء يستطيعون أن ينجزوا أعمالهم على خير ما يرام في ضوء النهار، كذلك ينجز طلاب الحق والسالكون على سبل "السلوك" مهماتهم الدينية متأسين بأسوة الإنسان الكامل بسهولة ويُسر. إذن إن ذلك الإنسان الكامل قادر على أن يُظهر نفسه بجلاء كامل كالنهار، ويجمع في شخصه صفات النهار كافةً[٢٨].

إن للإنسان الكامل مماثلة نوعا ما مع الليلة الحالكة أيضا لأنه مع كونه محظوظا من الله بالانقطاع التام إليه والتبتّل البالغ غايته، يميل أحيانا بسبب الحكمة الإلهية إلى أهواء نفسه المظلمة. أي أن الإنسان الكامل يؤدي جميع حقوق النفس التي وُضعت له كالأكل والشرب والنوم وأداء حقوق الزوجة أو

[٢٨] الحاشية: اقتضت حكمةُ الله الكاملة أن ترمز الشمس إلى ٧٣٠ وظيفة تقوم من خلالها بتأثيراتها المختلفة على الدنيا. وتُعطى اسما معينا نظرا إلى كل وظيفة؛ إذ إن أيام الأسبوع مثل الأحد والاثنين والثلاثاء وغيرها ما هي في الحقيقة إلا أسماءً للشمس بحسب وظائفها ولوازمها وتأثيراتها الخاصة. وعندما لا نضع في الاعتبار هذه الوظائف الخاصة عند الكلام؛ نسميها "الشمس" فقط، ولكن عندما نشير إليها واضعين في الاعتبار صفاتها الخاصة وتأثيراتها ومقاماتها في الذهن نسميها نهارا أحيانا، أو نطلق عليها الليل أحيانا أخرى، كما نطلق عليها الأحد أو الاثنين أو تموز أو آب أو أيلول وهلمّ جرا.

فباختصار، كل هذه هي أسماء الشمس في الحقيقة. كذلك إن نفس الإنسان أيضا تُسمَّى بأسماء مختلفة من منطلق المقامات والأوقات والحالات والظروف المختلفة. ففي بعض الأحيان تسمَّى "النفس الزكية" وأحيانا تسمى "الأمارة" أو "اللوامة" أو "المطمئنة". فلها أيضا أسماء كما للشمس أسماء، ولكن أكتفي بهذا القدر من البيان خوف الإطالة. منه.

الالتفات إلى الأولاد؛ وإن كانت تبدو في الظاهر منافيةً وضدًّا للنورانية ويقبل لنفسه هذا الظلام لفترة وجيزة. ولكن ليس لأنه ميّال إلى الظلام في الحقيقة، بل لأن الله العليم الحكيم يوجّهه إلى ذلك لكي يستريح قليلا من التعب والمشقة الروحانية؛ فيستعدّ لتجشّم مجاهدات شاقة *كقول شاعر فارسي ما معناه*:

"إن عين الصياد الماهر هي كعين الصقر، فإنها تبقى مفتوحة دائما وإن أغلقها أحيانا"

فعلى غرار ذلك حين يستمتع الكمَّلُ من الحظوظ النفسانية إلى حد ما بعد بلوغ الكآبة والحرقة غايتهما وعند غلبة الهم والغم، يتقوى جسمهم الضعيف من جديد لصحبة الروح، ويعبر مراحل نورانية عظيمة على إثر بقائه في الحُجُب لفترة وجيزة.

وإضافة إلى ذلك توجد في نفس الإنسان بعضٌ من صفات الليل الدقيقة الأخرى أيضا التي اكتشفها بدقة متناهية علم الفلك والنجومِ وعلومُ الطبيعة. كذلك لنفس الإنسان الكامل مماثلة بالسماء أيضا. فمثلا؛ إن فضاء السماء واسع جدا بحيث لا يملؤه شيء، كذلك إن نفسَ هؤلاء الأبرار أيضا تكون بالغةً من السعة غايتها. فمع تحصيلهم آلاف المعارف والحقائق يهتفون بأعلى صوتهم: "ما عرفناك". وكما أن الفضاء مليء بالنجوم اللامعة، كذلك أُودِع الإنسان الكامل قوىً منيرةً تتراءى متلألئةً تلألُؤ النجوم في السماء.

ولنفس الإنسان الكامل مماثلة تامة مع الأرض أيضا؛ فكما تتصف الأرض الجيدة الخصوبة بأنها لو بُذرت وحُرثت حرثا جيدا وسُقيت على ما يرام وأُكمِلت جميع مراحل الزراعة ومقتضياتها بالتمام؛ لأثمرت ألف مرة أكثر من أراض أخرى، ولكانت ثمارها ألطف وأحلى ومرغوبا فيها أكثر، ولكانت أعلى

وأجود كيفا وكمًّا مقارنةً مع ثمار أراض أخرى. كذلك الحال بالنسبة إلى نفس الإنسان الكامل، أنه حين تُبذر فيها الأوامرُ الإلهية تنبت فيها أشجار الأعمال الصالحة مع أنواع الخضرة العجيبة، وتحمل ثمارا غايةً في الجودة واللذة بحيث يندفع كلٌّ من رآها للقول تلقائيا "سبحان الله، سبحان الله" بملاحظته قدرة الله المقدسة. فالآية: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ توحي بجلاء أن الإنسان الكامل بمنزلة عالَم كامل معنًى وكيفا، ويجمع في شخصه كافة شؤون العالَم الكبير وصفاته وخواصه إجمالا. فقد ذكر الله جلّ شأنه خواص جميع الأشياء تلميحا بدءا من الشمس إلى الأرض التي هي مستقَرٌ لنا، أي ذكرها مقرونة بالقسم ثم ذكر نفس الإنسان الكامل ليُعلَم أن نفس الإنسان الكامل جامعة للكمالات المتفرقة التي ذُكرت بصورة منفصلة في الأشياء التي أقسم بها من قبلُ.

وإذا طُرح سؤال: لماذا أقسم الله تعالى بأشياء خلقها هو ولا أهمية لها ولا معنى مقابله؟

فجوابه أن من سنة الله تعالى الجارية في القرآن الكريم أنه تعالى يضرب لإثبات بعض الأمور النظرية وإحقاقها أمثلةً من الأمور التي تحمل في طياتها خصائص ثابتة وبينة ومكشوفة؛ كما لا يشك أحد في وجود الشمس وضوئها، أو في وجود القمر واستمداده النور من الشمس، كذلك فإن النهار المشرق أيضا واضح للجميع، كما يرى الجميعُ الليلَ، والفضاء أيضا جليّ للناس، وأما الأرض فهي مستقر للجميع أصلا فلا يشك أحد في وجودها. فإن هذه الأشياء واضحة الوجود ولها خصائص جليّة ولا مجال لأحد للاختلاف فيها، أما نفس الإنسان فهي خافية ونظريةٌ إذ هناك خلافات كثيرة حتى في وجودها. فهناك فِرق كثيرة لا تؤمن أن نفس الإنسان، أي روحه، شيء مستقل وقائم بحد ذاته

ويبقى قائما إلى الأبد بعد فراقه الجسمَ. وإن بعض القائلين بوجـــود الـــروح وبقائها وقيامها أيضا لا يقدّرون قدراتها الباطنية حق قدرها، بل يقتصرون على فكرة أننا لم نأت إلى الدنيا إلا لنبذل حياتنا في الأكل والشـــرب والحظـــوظ النفسانية مثل الحيوانات، ولا يدرون ما في نفس الإنسان من القدرات والقوى العالية والسامية. ولو توجّه إلى كسب الكمالات لكان بإمكانه أن يحيط بالعالَم كله، في فترة وجيزة للغاية، بالكمالات المتفرقة وأنواع الفضائل إحاطةَ الدائرة. فقد أراد الله ﷻ أن يقدم في هذه السورة المباركة نفـــس الإنســـان ويثبـــت خصائصها الفاضلة التي لا نهاية لها. فأولًا بيّن - بُغيـــة توجيـــه الأفكـــار - خصائص متفرقة للشمس والقمر وغيرهما من الأشـــياء، ثم أشـــار إلى نفـــس الإنسان وقال بأنها جامعة لتلك الكمالات المتفرقة كافة. فما دامـــت تلـــك الكمالات والخصائص العليا - التي توجد في الأجرام الســـماوية والأرضـــية بصورة متفرقة - موجودة في نفس الإنسان بتمامها وكمالها؛ فمن أسوأ أنواع الغباوة التوَّهم بأن هذا الوجود العظيم والجامع لجميع الكمالات المتفرقة لـــيس بشيء يمكن بقاؤه بعد الموت. أي ما دامت هذه الخصائص موجودة في الأشياء المشهودة والملحوظة والتي لا اعتراض لديكم في الاعتقاد بوجودهـــا المســـتقل والدائم لدرجة أن الأعمى أيضا يشعر بضوء الشمس فيؤمن بوجودها، فمـــاذا يبرر إذن اعتراضكم على بقاء نفس الإنسان بصورة مستقلة وبحد ذاتها وقـــد اجتمعت فيها جميع تلك الخصائص. فهل يمكن لمن ليس شيئا بحد ذاته أن يجمع في نفسه صفات وخصائص جميع الأشياء الثابتة الوجود؟

لقد آثر الله تعالى هنا أسلوب القسم، لأن القسم يقوم مقـــام الشـــهادة. ولهذا السبب يعتمد القضاة في الدنيا أيضا على القســـم في غيـــاب الشـــهود،

ويعدلون قَسَمًا يُقسَم به مرة واحدة بشهادة شاهدَين على الأقـــل. فمـــا دام القسم يُعدُّ بمنـــزلة الشهادة عقلا وعُرفا وقانونا وشرعا، فقد عَدَّه الله تعالى هنا بمنـــزلة الشاهد.

فالمراد من قول الله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُـــحَاهَا﴾ هـــو أن الشـــمس وضحاها تشهدان كشاهد عيانٍ على كون نفس الإنسان كيانًا ثابت الوجـــود وقائمًا بحد ذاته، لأن جميع صفات الشمس من الحـــرارة والضـــوء وغيرهمـــا؛ موجودة ذاهما - بشيء من الزيادة - في نفس الإنسان أيضا. إن عجائب نـــور المكاشفات وحرارة التركيز والتفاني التي توجد في النفوس الكاملة أكثر بكـــثير من حرارة الشمس وضوئها. فما دامت الشمس ثابتة الوجود وموجودة بحـــد ذاتها، فكيف يستحيل أن يكون ثابت الوجود وموجودا بحد ذاته مَن كان مِثلَها -بل أعلى وأسمى منها- من حيث الصفات والخصائص؛ أي نفس الإنسان؟

كذلك المراد من قوله ﷻ: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ أن القمر بصفة استفاضته من الشمس واستمداده من ضوئها؛ شاهد عيان على أن نفس الإنسان ثابتـــة الوجود والموجودة بحد ذاتها. لأنه كما يكتسب القمر نورا من الشمس، كذلك يقتبس الإنسان المتحمس وطالب الحق من نور الإنســـان الكامـــل باتّباعـــه، ويستفيض من فيوضه الباطنية، بل يستفيد أكثر من استفادة القمر؛ لأن القمـــر يغيب بعد استمداده النور، ولكن هذا الإنسان لا يهجر متبوعه قط. فمـــا دام هذا التابع يشارك القمر بالتّمام في عملية استمداد النور ويملك بقيـــة صـــفات القمر أيضا؛ فلماذا يُعتبر القمر ثابت الوجود وقائمًا بحد ذاته، ويُرفض تمامـــا كون نفس الإنسان ثابتة الوجود وقائمةً بحد ذاتها؟

فعلى هذا النحو؛ جعل الله تعالى كل الأشياء التي ذكرها قبل القسم بنفس الإنسان شاهدة ناطقة بحسب خصائصها، وبذلك وجه الأنظار إلى أن نفس الإنسان موجودة فعلا. كذلك كلما أقسم الله تعالى في القرآن الكريم ببعض الأشياء، كان المراد من ذلك دائما تقديم الأمر البديهي شاهدا على الأسرار المخفية المماثلة لها.

قد يُطرَح هنا سؤال: إن خصائص الشهود، التي قدِّمت قَسَمًا على كون نفس الإنسان موجودة بحد ذاتها؛ غير موجودة في الإنسان بداهةً، فما الدليل على وجودها فيه؟ جوابًا على ذلك يقول الله تعالى - بعد أن أقسم بالنفس- دحضا لهذه الوسوسة: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[٢٩]. أي لقد خلق الله نفس الإنسان وفتح لها سبيل الظلام والنور، وسبيل الخراب والازدهار. والذي يختار الظلمة والفجور (أي سبل السيئات) يوصَل إلى درجة الكمال في تلك السبل، حتى يُشبه بالليل الحالك الظلام بشدة، ولا يستمتع في شيء إلا بالمعصية والسيئة والأفكار المظلمة، فيحب القُرناء من هذا القبيل وتُعجبه الأعمال من هذا النوع، ويتلقّى إلهامات سيئة لانسجامها مع طبعه السيئ؛ أي تتبادر إلى ذهنه الأفكار السيئة والمنكَرة دائما، ولا تنشأ في قلبه أفكارٌ حسنةٌ قط.

أما إذا اختار طريق النور والتقوى؛ فيتلقّى إلهامات تدعم ذلك النور. أي أن الله تعالى يبلّغ النور الموجود في قلبه كبذرةٍ إلى درجة الكمال بإلهاماته الخاصة. ويُزكي نار مكاشفاته المنيرة. عندها يرى هذا الإنسان نوره المنير ويتيقّن - بعد فحص صفة الإفاضة والاستفاضة الموجودة فيه - أن نور الشمس

---

[٢٩] *الشمس: ٩-١٠*

والقمر موجود في نفسه أيضا، وأنه أيضا محظوظ بانشراح الصدر وعلوّ الهمة، ويتأكد أنه كما مُلئت السماء الواسعة بالكواكب، كذلك مُلئ قلبه وذهنه برصيد القوى المنيرة التي تتلألأ تلألُؤَ النجوم. عندها لا يعود بحاجة إلى دليل خارجي لفهم هذا الأمر، بل يتدفق من داخله ينبوع الأدلة الكاملة دائما، ويسقي قلبه العطشان.

أما إذا طُرح سؤال: كيف يمكن مشاهدة هذه الخصائص في نفس الإنسان عمليا؟ فيقول الله تعالى ردًّا على ذلك: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[٣٠]. أي مَن زكّى نفسه وتخلّى عن الرذائل والأخلاق الذميمة تماما وسلّم نفسه لأوامر الله تعالى؛ نال مرامه، ووجد نفسه جامعة للكمالات المتفرقة مثل العالَم الصغير. ومن لم يُزَكِّ نفسه، بل دسَّاها في تراب الأهواء السيئة؛ حُرم من نيل المرام.

فملخص الكلام أنه توجد في نفس الإنسان، دون أدنى شك، الكمالات التي توجد متفرقةً في العالم كله. وللتيقُّن بوجودها، هناك سبيل بسيط ومستقيم؛ وهو أن يتوجه الإنسان إلى تزكية نفسه حسب مشيئة قانون الله، لأنه في حالة التزكية لن تنكشف عليه حقيقة تلك الكمالات الكامنة كعلم اليقين فقط، بل كحق اليقين.

ثم يضرب الله مثَل قوم ثمود ويقول بأنهم كذّبوا نبيهم لتمرُّدٍ في جبِلّتهم، وتقدَّم أشقاهم للتكذيب. فنصحهم نبيُّهم بألا يتعرضوا لناقة الله ومشربها، ولكنهم لم يسمعوا له وعقروا الناقة. فأورد الله عليهم الهلاك والدمار عقابا على

---

[٣٠] الشمس: ١٠-١١

جريمتهم وأرغمهم في التراب، و لم يعبأ ﷻ بما سيحدث بعد موتهم بأراملهم وأيتامهم وأهلهم عديمي الحيلة.

فهذا مَثَلٌ دقيق جدا ضربه الله تعالى هنا لتشبيه نفس الإنسان بناقة الله. والمراد منه أن نفس الإنسان أيضا قد خُلقت لتعمل عمل ناقة الله؛ ليركبها الله ﷻ بتجليه الطاهر في حال فنائها في الله، كما يركب أحدكم ناقةً. فقد قال تعالى لأُسارى النفس، الذين يُعرضون عن الحق، إنذارا وتهديدا؛ إنكم أيضا تذودون، مثل قوم ثمود، ناقة الله عن سُقياها أي مشربها الذي هو عين ذكر الله ومعارفه التي عليها تتوقف حياة الناقة و لم تمنعوها عن مشربها فحسب، بل تريدون عَقْرها أيضا حتى تعجز عن سلوك سبل الله. فإن كنتم تريدون أن تكونوا في مأمن فلا تقطعوا عنها ماء حياتها، ولا تعقروها بسهام أهوائكم الباطلة وفؤوسكم. ولو فعلتم ذلك وماتت الناقة - التي أُعطيتموها مطيةً لله- جريحةً؛ لاعتُبرتم شيئا لا جدوى منه كالحطب، ولقُطعتم وطُرحتم في النار. ثم لن يرحم الله ذويكم بعد موتكم، بل سيواجهون وبال معصيتكم وسيئاتكم. ولن تموتوا أنتم وحدكم عقوبةً على أعمالكم، بل تُلقون بأهليكم وأولادكم أيضا إلى التهلكة.

لقد تبين بوضوح من هذه الآيات البينات أن الله تعالى قد خلق الإنسان أفضل وأعلى من جميع المخلوقات، وأن كون الملائكة والكواكب وغيرها من الأشياء وسائط بين الله والإنسان، لا يدل على أفضليتها. وأنها لا ترفع من شأن الإنسان لكونها الوسائط، بل هي التي تنال العزة لكونها سُخِّرت لخدمة أشرف المخلوقات. إذن، فإنها خادمة كلها وليست مخدومة. نِعم ما قال الشاعر سعدي الشيرازي رحمه الله وتعريبه:

"إن السحاب والريح والقمر والشمس والأفلاك كلها مسخّرة لكي تكسب لقمة عيشك؛ فلا تأكلها ناكرا للجميل.

كل هذه الأشياء مسخّرة لخدمتك وطاعتك، وليس عدلا إن لم تطع أنت ربك."

والآن أعود إلى بقية كلامي وأقول إن ملائكة الله، كما قلت من قبل، ليسوا على مستوى واحد من حيث المرتبة والعظمة، وليسوا مكلَّفين بمهمة واحدة. بل كل ملاك مكلَّف بإنجاز مهمة مختلفة. فكل ما ترونه في الدنيا من تغيّرات وانقلابات، أو ما يحدث على صعيد الواقع بسبب القوة الكامنة، أو كلّما تصل الأرواح والأجسام إلى الدرجة المطلوبة من كمالها؛ كل ذلك يتم بعمل التأثيرات السماوية فيه. وفي بعض الأحيان يلقي ملاك واحد تأثيراته المختلفة في مواهب الناس وإمكانياتهم المتفاوتة. فمثلا؛ إن جبريل - وهو ملاك عظيم الشأن ومرتبط بكوكب شديد التألق في السماء - مكلَّفٌ بخدمات عديدة وفقًا لخدماتٍ أنيطت بالكوكب الذي يرتبط به جبريل. ومع أن هذا الملاك ينزل على كل شخص يُشرَّف بوحي الله تعالى، (المراد من النزول هنا هو إلقاء التأثير وليس بصورة ظاهرية) ولكن دائرة تأثيرات نزوله تنقسم إلى دوائر صغيرة أو كبيرة بحسب مواهب كل شخص وظروفه. إن أكبر وأوسع دائرة التأثير الروحاني لجبريل ترتبط بوحي سيدنا خاتَم الأنبياء ﷺ. لذلك فإن المعارف والحقائق وكمالات الحكمة والبلاغة التي توجَد في القرآن الكريم بصورة أكمل وأتم، لا يحظى بهذه المرتبة العظيمة أي كتاب سواه.

ولا بد من التذكّر أيضا، كما أشرت إليه من قبل أيضا، أن تأثير الملاك على نفس الإنسان يكون على نوعين:

النوع الأول: هو التأثير الذي يقع بإذن الله على الجنين وهو في الـــرحم، ويختلف التأثير على اختلاف البذرة في الرحم.

النوع الثاني: هو التأثير الذي يقع بعد تكوين الوجود، ويعمـــل عملـــه لإيصال مواهبه الممكنة إلى درجة الكمال قدر الإمكان. وإذا كان النوع الثاني من التأثير يتعلق بنبي أو وليٍّ كاملٍ؛ سُمي وحيا. فعندما تُنشئ النفسُ المتحمسة علاقة الصداقة - نتيجة نور إيمانها ونور حبها الكامل - مع مبـــدأ الفيـــوض ويستولي على حبها حبُّ الله واهبُ الحياة؛ فإن القدرة التي ينالها الإنسان على التقدم إلى ذلك الحين، تكون إظهارا للتأثير الكامن الذي تركه مـــلاك الله في الجنين حين كان في رحم أمه. ثم حين ينال الإنسان المرتبة المذكورة آنفا، نتيجة التأثير الملائكي الأول، يُلقي عليه الملاك نفسه تأثيره النوراني من جديد، ولكن ليس من عند نفسه، بل لكونه خادما وسيطا، فإنه يجذب فيض نور الله في نفسه ويوصله إلى الجانب الثاني؛ تماما مثل الأنبوب الذي يجذب الماء مـــن جانـــب ويوصله إلى جانب آخر. عندما يطرح الإنسانُ نفسه قرب أنبوب روح القدس نتيجة اقتران الحُبَّينِ؛ ينـــزل من ذلك الأنبوب فيضُ الوحي عليه دفعة واحدة. أو قولوا إن شئتم إن جبريل يلقي بأنواره على ذلك القلب المتحمس ويرسم فيه صورته. وعندها تسمَّى تلك الصورة المنعكسة أيضًا جبريل، مثلما سُمي الملاك المستقر في السماء جبريلَ. أو يمكن القول مثلا: إذا كان اسم ذلك الملاك "روح القدس" تسمى تلك الصورة المنعكسة أيضًا روحَ القدس. ولكن هذا لا يعني أن الملاك يقتحم داخل الإنسان، بل تنعكس صورته في مرآة قلب الإنسان. فمثلا لو واجهتم مرآة نقيّة؛ لارتسمت فيها صورة وجهكم المنعكسة فورا حســـب

ملامحكم. ولكن هذا لا يعني أن رأسكم فُصل من العنق ووُضع في المرآة، بـــل يبقى الرأس في مكانه وإنما يقع على المرآة انعكاسه فقط. ثم الانعكاس أيضا لا يكون هُوَ هُوَ دائما، بل يتوافق مع سعةِ مرآة القلب. فمثلا لو رأيتم وجهكم في مرآة صغيرة في فَصِّ الخاتم؛ فسيظهر فيها الوجه بكامله أيضا، غير أن كل عضو من أعضائه سيبدو أصغر كثيرا من وضعه الطبيعي. ولكـــن لـــو أردتم رؤيـــة وجهكم في مرآة كبيرة تكفي لعكس ملامحكم كاملـــة؛ لظهـــرت ملامحكـــم وأعضاء الوجه كلها على وضعها الطبيعي. فهذا هو حال تأثيرات جبريل، فإنه يلقي تأثيراته على كل وليٍّ مهما كان صغيرا، وقد ظلّ جبريل نفســـه يلقـــي تأثيراته أيضا على قلب سيدنا خاتم الأنبياء ﷺ. ولكن الفرق بين النوعين مـــن الوحي كالفرق بين المرآة الصغيرة والكبيرة. أي أن جبريل كان هُـــوَ هُـــوَ في الظاهر، وتأثيراته هِيَ هِيَ ولكن الموهبة المستقبِلة في جميع الحالات لم تكن على مستوى واحد من السعة والصفاء.

ولقد أوردتُ هنا كلمة "الصفاء" فهو لبيان أن الاخـــتلاف في تـــأثيرات جبريل ليس كمًّا فقط، بل كيفًا أيضا. بمعنى أن صفاء القلب - الذي هو شرط للانعكاس- لا يكون على مستوى واحد لدى جميع الملهَمين، كما تـــرون أن كل المرايا أيضا ليست على مستوى واحد من الصفاء. فمنها ما هو مصـــقول جيدا وصافٍ جدا؛ فتظهر صورةُ الناظر فيها كاملة، ومنها ما هو وسخ وضبابيٌّ ومغبَّرٌ؛ فلا تَظهر فيه الصورة بوضوح، بل تبدو بعضها مشوهة؛ فإن ظهـــرت الشفتان ما شوهد الأنف، أو إن شوهد الأنف ما ظهرت العينان. والحال نفسه

بالنسبة إلى مرايا القلوب؛ فكلما كان القلب صافيا كان الانعكاس فيه أصفى وأجلى، وكلما كان القلب مكدّرا ظهر فيه الانعكاس مكدرا.

لقد حظي قلب النبي ﷺ بصفاء أكمل وأصفى لم يحظ به قلب آخر قط.

هنا لا بد من البيان أيضا أن الله – الذي هو عِلّة العِلل، وبوجوده ترتبط سلسلة جميع الموجودات – حين يتحرك إراديًا لإحداث أمر ما، سواء بصفته المربي أو بصفته القاهر، يصبح التحرك إذا كان بصورة أتم وأكمل؛ شرطا لا غنى عنه لجميع المخلوقات. أما إذا كان تحركًا جزئيا؛ فيحدث التفاعل في بعض أجزاء العالَم بحسبه.

الحق أن مَثَل علاقة المخلوقات والعوالم مع الله ﷻ كمثل علاقة الجسم مع الروح. فكما أن جميع أعضاء الجسم تتبع مشيئة الروح وتميل حيثما مالت؛ كذلك الحال بالنسبة إلى العلاقة بين الله وخلقه. لا أقول في حق الله سبحانه وتعالى واجبِ الوجود كما قال صاحب كتاب "فصوص الحِكَم"[٣١]: "خلق الأشياءَ وهو عينها"، بل أقول: "خلق الأشياء وهو كعينها. هذا العالم كصرح ممرّد من قوارير، وماءِ الطاقة العظمى يجري تحتها ويفعل ما يريد. يخيّل في عيون قاصرة كأنها هو. يحسبون الشمس والقمر والنجوم مؤثرات بذاتها؛ ولا مؤثر إلا هو."

لقد كشف عليَّ الحكيمُ مُطلقُ الحكمةِ هذا السرّ المكنون؛ أن هذا العالَم كله مع جميع أجزائه؛ ليس قائما بنفسه بل هو كالأعضاء من أجل تنفيذ أفعال *(الله)*، علّة العِلل وإراداتِه، ويستمد القوة كل حين من ذلك الروح الأعظم. كما أن جميع قوى الجسم قائمة بسبب الروح فيه، كذلك إن بعض الأشياء في هذا العالَم – الذي هو بمنزلة الأعضاء لذلك الروح الأعظم – إنما هي

[٣١] *الشيخ المتصوف محيي الدين بن عربي. (المترجم)*

بمنـــزلة نور وجهه ﷻ وتفيد كالنور ظاهرًا أو باطنًا بحســـب مشـــيئته ﷻ. وبعض هذه الأشياء هي بمنـــزلة يديه، وبعضها بمنـــزلة قدمَيه، وبعضها بمنـــزلة نَفَسِه ﷻ.

باختصار، إن مكونات هذا العالم هي بمنـــزلة الجســـم بالنســـبة إلى الله تعالى، وكل ما لهذا الجسم من رونق وبهاء ورشاقة وحياة؛ إنما هو بسبب ذلك الروح الأعظم الذي هو قيّومه. وكلما حدثت في ذلك القيوم حركة إراديـــة؛ نشأت الحركة في أعضاءِ هذا الجسم كلِّها أو بعضها حسبما يقتضـــيه ذلـــك القيوم.

لتصوير البيان المذكور أعلاه يمكننا أن نفترض على سبيل التخيّل أن قيّوم العالمين هو الوجود الأعظم الذي له أعضاء من أيدٍ وأرجل تخرج عـــن حـــدّ الإحصاء والطول والعرض، وأنّ لهذا الوجود الأعظم أذرعًا - كمـــا تكـــون للأخطبوط - تصل إلى أنحاء صفحة الوجود كله وتعمل عمل الجاذبية، وهذه الأعضاء هي نفسها التي تسمى العالم. وكلما تحرَّك قيّوم العالم جزئيا أو كليا؛ فلا بد من أن تتحرك أعضاء هذا العالم أيضا، وسوف ينفّذ جميع إراداته مـــن خلال هذه الأعضاء وليس بطريق آخر. فهذا هو المثال سهل الفهم لهذا الأمـــر الروحاني. وأما ما قيل إن كل جزئية من المخلوقات تابعة لمشيئة الله وتُحقـــق أهدافه الخفية من خلال خدماتها الخفية، وتفنى في سبيل مرضاته ﷻ بطاعتـــه الكاملة؛ فإن هذه الطاعة ليست من قبيل الطاعة التي تـــأتي نتيجـــة الســـلطة والإكراه؛ بل الحق أن كل شيء يُجذَب إلى الله تعالى جذبًا مغناطيسيًا، ويبدو أن كل ذرة خاضعة له ﷻ بطبعها خضوعَ الجوارح المختلفة للجسم.

فالحق كل الحق أن العالَم كله بمنـزلة الجوارح لذلك الوجود الأعظم، ولهذا السبب يسمّى ذلك الوجود قيّومَ العالمين، لأنه قيّوم المخلوقات كلِّها ككون الروح قيُّوم الجسم. ولولا ذلك لفسد نظام العالَم فسادا تاما.

إن كل مشيئة ذلك القيوم - سواء أكانت ظاهرة أم باطنة، دينية أم دنيوية- إنما تَظهر بواسطة المخلوقات، ولا تظهر مشيئة له على الأرض دون هذه الوسائط قط. هذه هي سنَّة الله الجارية دون تحويل أو تبديل منذ بدء الخليقة. ولكني أستغرب استغرابًا ما بعده استغراب من عقول الذين يرون ضرورة بخار الماء كواسطة لنـزول المطر المادي الذي ينـزل على الأرض من السحاب، ويرون نزوله بمحض قدرة الله دون السحاب حاملِ الماء مستحيلا؛ ولكنهم يسْخرون جهلا من توسط سحاب الملائكة - الواجب شرعًا - لنـزول غيث الإلهام الذي ينـزل على القلوب النقيّة، ويقولون: أليس الله بقادر على أن ينـزِل الإلهام بنفسه دون واسطة الملائكة؟ إنهم يعتقدون أن سماع صوت بغير واسطة الهواء ينافي قانون الطبيعة، ولكنهم غافلون عن قانون الطبيعة المتعلق بالهواء الذي يوصل صوت الله الروحاني إلى قلوب الملهَمين. إنهم يقبلون بالحاجةِ إلى ضوء الشمس لتبصر العيونُ المادية، ولكن لا يوقنون بحاجة العيون الروحانية للنور السماوي.

فلما عُلم بوضوح تام بأن قانون الله هو أن هذا العالَم مع جميع قواه الظاهرية والباطنية بمنـزلة جوارح الله واجب الوجود، وأن كل شيء يعمل في الحقيقة عمل الجوارح حسب مقتضى الحال والظروف، وأن كل إرادة من إرادات الله تَظهر بواسطة تلك الجوارح ولا تظهر مشيئة بغير وساطتها قط؛ فعلينا أن نعلم أيضا على وجه اليقين أن علاقة جبريل- التي عُـدَّت ضرورية

ومقبولة في الإسلام - بنـــزول وحي الله على القلوب الطاهرة مبنية على المبدأ الحق نفسه الذي ذكرناه قبل قليل.

وبيان ذلك أنه من الضروري حسب قانون الطبيعة المذكور آنفًا أن يعمل مخلوقٌ عمل الجارحة لإظهار إرادة الله في مجال إلقاء الوحي أو تزويـــد أحـــد بموهبة تلقي الوحي، وأن يعمل في مجال تنفيذ مشيئته ﷻ في أمور تتعلق بالإلهام والروحانية كما ينفذها ماديًا. فهذه الجارحة نفسها تسمى بتعبير آخر "جبريل" الذي يتحرك بلا تأخير كجارحة تبَعًا لحركة ذلك الوجود الأعظم. أي عندما يتوجه الله تعالى بحبٍّ إلى قلب محبٍّ، يضطر جبريل - الذي علاقته بالله علاقة النَفَسِ بالهواء، وعلاقة العينِ بالنور - للتحرك إلى الاتجاه نفسه حسب المبـــدأ الذي ذكرناه قبل قليل. أو قولوا إن شئتم إنه يتحرك عفويا وتلقائيا على إثـــر حركة الله كما يتحرك الظل بصورة طبيعية بحركة الأصل.

فعندما يتحرك نور جبريل بجذبٍ من الله وحـــثٍّ منـــه ﷻ ونفحاتـــه النورانية؛ ترتسم صورته - التي يجب أن تسمَّى روح القدس - على قلب المحب الصادق فورا، وتصبح جزءًا لا يتجزأ من حبه الصادق. عندها تعمل هذه القوة عملَ الأذن لسماع صوت الله ﷻ، وتنوب مناب العين لرؤية عجائبه، وتـــؤثّر على اللسان تأثير الحرارة المحرِّكة لجريان إلهاماته ﷻ التي تحرّك اللســـان بقـــوة متزايدة على خط الإلهام. وما لم تنشأ هذه القوة يبقى قلب الإنســـان عَمِهًـــا ويبقى لسانُه مثل قطار انفصل عن القاطرة. وليكن معلوما أن هذه القوة الـــتي تُسمَّى "روح القدس" لا تنشأ بمستوى واحد في كل قلب، وإنما يؤثر فيه هـــذا النور الملائكي لجبريل بقدر كمال حب الإنسان أو نقصه.

والجدير بالذكر أيضا أن قوة روح القدس التي تنشأ في قلـــب الإنســـان باجتماع الحبَّينِ كانعكاسٍ لنور جبريل الملائكي؛ لا يُشتَرط لنشوئها أن يسمع الإنسان على الدوام كلام الله المقدس أو يرى الكشوف باستمرار، بـــل هـــي بمنـــزلة أسباب فورية لتلقي الأنوار السماوية. أو قُل إن شئتَ بأنها نور روحاني من الله لتبصر بواسطتها عيونٌ روحانية، أو هي هواء روحاني لإيصال الصوت إلى آذان روحانية.

والواضح أنه ما لم يكن هناك شيء موجودا أصلا؛ فلا يمكن للضـــوء أن يُظهر وجوده. وما لم يتفوه المتكلِّم بكلام؛ لا يمكن للهواء أن يوصل أي خـــبر إلى الآذان. كذلك فإن هذا الضوء أو الهواء ما هو إلا كمؤيّد سماوي للحواس الروحانية؛ ومَثلهما كمثل ضوء الشمس للعيون المادية، أو كمثل الهواء للآذان المادية. وعندما يريد الله تعالى إلقاء كلامه على قلبِ ملهَمٍ؛ ففور توجّهه للكلام - من أجل الإلقاء - ينشأ تيارٌ ضوئيٌّ أو هوائيٌّ في نور جبريل الملائكـــي، أو تنشأ موجةُ حرارة لتحريك لسان الملهَم. وبسبب هذا التمـــوُّج أو الحــــرارة؛ يتراءى ذلك الكلام مكتوبا أمام عينَي الملهَم فورا، أو يتناهى صوته إلى أذنيه، أو تجري الكلمات الإلهامية على لسانه. إن الحواس الروحانية والنـــور الروحــــاني المعطيَين للمُلهم قبل الإلهام كمَلَكَةٍ؛ إنما أُعطيا لكي يُحرز قوةَ استقبال الإلهـــام قبل نزوله عليه، لأنه لو نزل الإلهام وقلبُ الملهَم محرومٌ من الحواس الروحانية أو لم يصل عينَ قلبه نورٌ من روح القدس، لما كانت عنده عيون طـــاهرة لمعرفـــة الإلهام الإلهي. فلهذه الضرورة يُعطَى الملهَم تلك الملَكَتَين. وسيدرك القرّاء مِـــن خلال هذا البحث أن جبريل مكلَّف في الوحي بثلاث مهمات:

أولا: عندما تُقذَف في الرحم نطفةٌ لتكوين الشخص الذي يريـــد الله أن يجعل فطرته قابلة لتلقي الإلهام بمقتضى رحمانيته ﷻ دون أن يكون للإنسان يد في ذلك، يُلقى عليه انعكاس نور جبريل الملائكي حال كونه نطفة. فتحرز فطرة ذلك الشخص مَلَكة تلقّي الإلهام بفضل الله البحت، فيُعطَى حـــواسَّ مناســـبة للإلهام.

ثانيا: ومهمة جبريل الثانية هي أنه عندما يدخل حب الإنسان في ظـــل حب الله، تحدث حركةٌ في نور جبريل نتيجة تحرُّك صفةِ الله المربّي، فينـــــزل ذلك النور على قلب المحب الصادق؛ أي ينعكس ذلك النور في قلـــب المحـــب الصادق فترتسم عليه صورة جبريل التي تعمل عمل الضوء أو الهواء أو الحرارة، وتبقى في الملهَم كموهبة لتلقي الإلهام. وإن جانبا منها يكون متغلغلا في نـــور جبريل، وجانبها الآخر يدخل قلب الملهَم، ويمكن تسميته بتعبير آخر بـــ "روح القدس" أو صورته.

ثالثا: ومهمة جبريل الثالثة هي أنه كلما ظهر من الله تعالى كلام؛ تنشَّطَ جبريل كالهواء وأبلغه إلى آذان القلوب، أو جعله أمام عينَي متلقيه بصورة ضوء لامع، أو أزكى الكلامَ بصورة حرارة تدفع اللسان وتُجريـــه وراء كلمـــات الإلهام.

هنا أريد أن أزيل وسوسة المتورطين في الشك والارتياب إذ يقولون: مـــا وجه أفضلية إلهامات الأولياء والأنبياء وكشوفهم على غيرهم؟ فكما أن الأمور الغيبية تُكشَف على الأنبياء والأولياء فإنها أيضا تُكشَف أحيانا على غيرهم، بل إن بعض الفساق والفجار الطغاة البالغين الغاية أيضا يـــرون رؤى صـــادقة في بعض الأحيان. وأحيانا يروي بعضُ الأوغاد والأشرار العُتاة أيضا مكاشـــفاتهم

وتتحقق أيضا. فما دام الأشرار والخبثاء والأوغاد والمعروفون بسوء طويتهم وتصرفاهم الشنيعة أيضا يشاركون في هذه الظاهرة أولئك الذين يعُدُّون أنفسهم أنبياء أو يعتبرون أنفسهم محتلين مرتبة خاصة؛ فأي فضيلة بقيت للأولياء والأنبياء؟"

أقول جوابا على ذلك إن هذا السؤال صحيح تماما في حد ذاته، وإن جزءا من ستة وأربعين جزءا من نور جبريل منتشر في العالم كله، ولا يخرج عن نطاقه فاسق أو فاجر أو طالح من الدرجة الأولى أيضا. بل أعتقد أيضا أنه قد ثبت بالتجربة أن الرؤيا الصادقة؛ قد تراها أحيانا امرأة فاسقة من فئة المومسات، هدرت شباها كله في الرذيلة. والأغرب من ذلك أن امرأة مثلها؛ يمكن أن ترى في ليلة قضتها في شرب الخمر وممارسة الرذيلة حلما يتحقق. وليكن معلومًا أنه من المفروض أن يحدث هذا، لأن نور جبريل يلقي بتأثيراته على العالم كله، مثل الشمس التي هي مركزه، بحسب إمكانيات المتلقِّين. وليس هناك أية نفس بشرية تُركت في الظلام تماما في هذا العالم. بل الحق أن شيئا من حب المستقر الأخير والمحبوب الحقيقي يوجد في كل شخص مهما كانت طبيعته دنيئة. ففي هذه الحالة كان ضروريا أن يقع تأثير جبريل إلى حد ما على جميع بني آدم حتى المجانين منهم، وهذا هو واقع الأمر، لأن المجانين الذين يسميهم عامة الناس المجذوبين؛ يتأثرون بنور جبريل في بعض الأحيان نتيجة انقطاعهم عن الدنيا نوعا ما، فيقع شيء من ضوء هذا النور على عيوهم الباطنية فترى شيئا من تصرفات الله الخفية. ولكن هذا النوع من الأحلام والمكاشفات لا يحط من شأن النبوة أو الولاية ولا يقلل من عظمتهما ولا يُحدث التباسًا مريبًا ومحيرًا؛ لأن هناك فرقا بيّنا بين الفريقين يستطيع كل ذي عقل سليم أن يدركه بسهولة.

وهو أن رؤى الخواص والعوام ومكاشفاهم ليست سواسية مطلقا كيفًا وكمًّا واتصالا وانفصالا. إن عباد الله الخواص يحظون بهذه النعمة الغيبية على وجه خارق للعادة. أما الآخرون فمَثل مشاركتهم في نِعم يُعطاها الخواص كمثل مشاركة المتسوِّل الذي يملك درهما واحدا في كنوز المِلِك. ومن الواضح أن هذه المشاركة البسيطة التي لا تكاد تُذكر لا تحط من شأن الملك ولا ترفع من شأن المتسول شيئا.

وإذا تدبرتم قليلا لوجدتم أن مَثل هذه المشاركة كمَثل مشاركة اليراعةِ الشمسَ في الضوء، فهل لليراعة أن تنال بهذه المشاركة نصيبا من مجد الشمس؟

فليكن معلوما أن كافة أنواع الفضيلة تتطلَّبُ أعلى درجات الكمال كيفًا وكمًّا، ولا يستوي شخصٌ بمعرفته كلمة واحدة مع عالم نِحريرٍ وفاضلٍ جِهْبِذ. ولا مَن نظَم شطرًا من بيت شعرٍ مصادفةً؛ يعادل فحول الشعراء.

باختصار، لا تخلو حكمةٌ أو سلطةٌ من مشاركةٍ من هذا القبيل ولو بمثقال ذرة. فمثلا؛ إذا كان الـمَلِك يحكم الدنيا، فكذلك يحكم عامل بسيط أيضا زوجه وأولاده في كوخه.

أما القول: لماذا جعل الله تعالى الأبرار والأشقياء يشاركون في هذه الظاهرة، ولماذا أعطى الغافلين نصيبا من هذه النعمة الغيبية وإن كان رمزيًّا فقط؟ فالجواب هو أنه ﷻ فعل ذلك إفحاما وإتماما للحجة؛ حتى تكون فئة المنكرين شهيدة على حالة الكمَّل. فحين يرى المنكرون في دائرة إمكانياتهم الضيقة نموذجا بسيطا لما يسمعونه من الكُمّل؛ فلا يسعهم أن يكذِّبوا ويستبعدوا كليًّا وبصدق القلب ظاهرة الإلهام بعد أن رأوا بأنفسهم نموذجا لها وإن كان

بسيطا. وبذلك يكونون تحت مؤاخذة الله لما يجدون في أنفسهم من نموذج بسيط لهذه الميزة الروحانية، ولسوف يؤاخَذون إن أنكروها.

يعتقد الآريون في العصر الراهن أن الله تعالى قد طوى صفحةَ الإلهام إلى الأبد بعد إنزاله الفيدات الأربعة. ولكن قانون الله الجاري يخطّئهم إذ يرون بأم أعينهم أن سلسلة الانكشافات الغيبية ما زالت جارية، وأن الفاسقين منهم أيضا قد يرون منامات صادقة في بعض الأحيان. من الواضح أن الله لم يحرم الفساق والفجار والعاكفين على الدنيا أيضا في هذا الزمن من فيضه الروحاني، بل ينزِل عليهم في بعض الأحيان رذاذ فيضه مع افتقارهم إلى انسجام كامل في طبائعهم مع هذه الظاهرة؛ ومن هنا يمكن أن ندرك ما يمكن أن ينزِّله سبحانه وتعالى على عباده الصالحين الذين يمشون تحت ظل مشيئته وينسجمون معه عز وجل انسجاما أكمل وأتم. والسر الآخر في هذه المشاركة الرمزية أن يدرك كل شخص - مهما كان فاسقا وفاجرا وكافرا وسفاكا - أن الله تعالى لم يخلقه ليهلكه، بل أودعه قوة على التقدم، ونـمّاها له كبذرة بحيث يستطيع أن يتقدم في هذا المجال، ولِيعلمَ أنه ليس محروما فطريا من مائدة أنعُم الله. ولكنه لو سلك سبيل الضلال باختياره هو، ولم يستفد من نورٍ أُودعَ فيه وحرم نفسه منه، وتنحّى قصدا عن الطرق الطبيعية المؤدية إلى النجاة؛ فهذا شأنه هو، ولَسوف يلقى وباله.

التذكير

لقد كتبنا في كتيب "فتح الإسلام" عن مهمة ربَّانية كلَّفني بها الله ﷻ، وذكرنا خمسة فروع لها، ووجَّهنا أنظار المخلصين للدين والمواسين للإسلام إلى ضرورة نصرة المهمة. فعلى إخوتنا المخلصين والمتحمسين أن يهتموا بهذا الأمر بسرعة حتى تبدأ جميع الأمور المذكورة على أحسن وجه.

الراقم

ميرزا غلام أحمد، من قاديان محافظة غورداسبور

الإعلان لعلماء الإسلام

كلّ ما كتبته حول موضوع مثيل المسيح فهو موجود متفرقًا في ثلاثة كتيبات هي: فتح الإسلام وتوضيح المرام وإزالة الأوهام. فمن الأنسب ألا يتسرع أحد في إظهار رأي معاد ما لم يقرأ هذه الكتيبات بالتأمل.

والسلام على من اتبع الهدى

الراقم

العبد المتواضع، ميرزا غلام أحمد